مجلة معهد الإمام الشاطبي

من أسرار النظم القرآني في سورة التكوير

دراسة بلاغية

د عيسى بن صلاح بن مساعد الرجبي

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والبلاغة –كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- من مواليد عام ١٣٩٧هـ بالمدينة المنورة.
- تخرج في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٢٠هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم الأدب والبلاغة في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية عام ١٤٢٤هـ بأطروحته: "**التَّأكيد البلاغيّ ومقاماته في الحديث الشريف: دراسة تطبيقيَّة تحليليَّة من خلال صحيح الإمام مسلم**"، كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٣٠هـ بأطروحته: " **التّصوير البيانيّ في حماسة أبي تمَّام: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة موازنة**".
- البريد الشَّبكيّ : dr.eisa357@gmail.com

الملخص

يأتي هذا البحث في سياق الكشف عن الأسرار البلاغيَّة لمفردات هذه السُّورة العظيمة ، وروائع النَّظم لتراكيبها ، وذلك من خلال تدبُّر معانيها ، والتأمُّل في أسرار نظمها، وتذوّق روائع بلاغتها ، مستعيناً بعد الله ﷻ بما ادَّخره السلف الصَّالح رضي الله عنهم في مصنفاتهم من كنوزٍ عظيمة في تفسير آيات هذه السُّورة وشرحها ، مما يؤكِّد أن البلاغة القرآنيّة لا تزال هي الميدان الفسيح للدراسات البلاغيَّة ، إذ المنهج التحليلي التطبيقي في البحث البلاغيّ من أفضل المناهج في دراسة النّصوص وتقويمها ، وأقدرها على تبيان الإعجاز البيانيّ في القرآن الكريم ، وأكثرها فائدة وأقدرها على تقريب البلاغة العربيّة للمتعلّمين .

فأكّدت اشتمال السّورة الكريمة على كنوز بيانيّةٍ متنوعة ، ودررٍ بلاغيّةٍ كان لها أثر عظيم في إيقاظ النفس وإبهاجها ، واستمالة القلب وإبهار العقل في نظمٍ موجزٍ بلغ الغاية في الإعجاز .

وعرضت في ثنايا بحثي للآيات المتشابهة في القرآن الكريم مع الآيات موضع الدّراسة لتقليب وجوه الفرق في تعبيراتها مع اتفاق موضوعاتها ، وكان لي وقفة في تقليب وجوه القراءات للكشف عن الغايات البلاغيّة الكامنة في آيات هذه السّورة .

والله الموفق.

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصّلاة والسلام على سيِّد المرسلين ، وبعد .

فإنَّ خدمة كتاب الله العظيم هي الهدف الأسمى من دراسة البلاغة العربيَّة على مدار القرون وتوالي العصور، فقد اجتهد علماؤنا منذ عصر التّدوين في محاولة الكشف عن شيء من الأسرار البلاغيَّة والنّكات البيانيَّة التي تنبثق من تدبّر هذا الكتاب العظيم، وهي أسرارٌ تفوق الحصر، ولا تستطيع أفهام البشر أن تصل إلى كنهها أو حصرها ، إذ القرآن الكريم بلغ المثل الأعلى والمقام الأسنى من جهة نظمه وروعة تراكيبه وحسن بيانه .

وإنّ من المقاصد التي عالجها القرآن الكريم وأفاض في الحديث عنها أهوال يوم القيامة ، فقد تكرَّر الحديث عنها في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ، وكم يشعر الإنسان بهزّة وخوفٍ بين يدي آيات يوم الفزع الأكبر فيحسّ بهيبة ألفاظها وجلالة معانيها ، وانتقاء ألفاظها وإبداع سبكها ، وروعة تصويرها لمعانيها ، ومن هنا نشأت فكرة هذا الموضوع : (**من أسرار النظم القرآني في سورة التكوير: دراسة بلاغية**).

فسورةُ التّكوير هي إحدى السّور التي عالجت هذا الموضوع المهمِّ بأسلوبٍ بلغ غايات البلاغة والبيان ، فأردتُ معايشة هذه السورة المكيّة بالبحث عن أسرارها البيانيَّة ، والكشف عن أوجهٍ من وجوه إعجازها البلاغيَّة ، وتحليل آياتها تحليلاً يُبرز أسرارها ، ويُجلِّي عن جمالها ، ويُرشد إلى ما تميَّزت به من الوضوح وحسن التَّصوير، وانتقاء الألفاظ وخفّتها ، وإتقان الأسلوب وإحكامه ، وجودة سبكه وقوَّة تأثيره ، مع دراسة لنظمها وبيانٍ لعظيم مدى الترابط والمناسبة بين آياتها وأجزائها.

أهمّية البحث:

تكمن أهمية البحث في أهمية المجال الذي يبحث فيه وهو كتاب الله جلَّ جلاله ، الذي هو أحقّ الحديث بالنظر في آياته ، وأجدرُ بإجالة الفكر في أساليبه وطرائق نظمه ، والاشتغال بفهم سوره وتدبّرها ، ففي ذلك أعظم سعادة وأجلّ غاية وأسمى شرفٍ

يُتوّج به المؤمن، يقول الإمام الزركشي عن بلاغة القرآن الكريم : «بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كلِّ مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتقارَن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كلّ البيان جوامعه وبدائعه.. فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب ، وصرَّفه بأبدع معنىً وأغرب أسلوب، لا يستقصي معانيه فهمُ الخلق ، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطَّلْق ، فالسعيد من صرف همَّته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه» (١).

كما أن هذه السورة المباركة لم تأخذ حظها من الدرس البيانيِّ والتحليل البلاغي؛ إذ لم أقف على أيَّة دراسة بلاغيَّة متخصِّصة دارت حول هذه السَّورة ، فلم يعدُ ما كتب حولها بلاغيَّاً إلا أن يكون إشاراتٍ عابرة وردت في ثنايا كلام المفسرين، ومن هنا تأتي أهمية استشراف جوانب الإعجاز البلاغيِّ في هذه السورة العظيمة .

أسباب اختيار هذا الموضوع :

اختيار سورة التَّكوير لتكون مجالاً للتأمّل في أسرار نظمها وروائع بلاغتها جاء انطلاقاً من أسبابٍ عدِّة ، أهمّها :

١ . استشراف آفاق البلاغة القرآنيَّة المعجزة ووجوهها العظيمة ، وتطبيقٌ عمليٌّ لما يُمكن أن يُقدمه من شواهد رفيعة على مطابقة الكلام لمقتضى الحال من كتاب الله العظيم .

٢ . الرَّغبة في ربط البلاغة العربيَّة بمعينها الأوَّل (كلام الله جلَّ جلاله) ، فهو أولى الكلام بأن تُستقى منه الشَّواهد والأدلَّة على مباحث البلاغة وألوانها ؛ فالأسلوب القرآني هو قطب رحى البلاغة وعمودها .

٣ . استجابة لدعوة كريمة من نبيٍّ عظيم حثَّنا على دَرْس سورة التكوير وتأمّلها ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في جامعه أن رسول الله ﷺ قال : «**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأي عينٍ فليقرأ** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

(١) البرهان في علوم القرآن : ١ / ٩٦-٩٧ .

و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾»[1].

٤. الحاجة الماسّة لتدبّر آيات الخوف والفزع من أهوال اليوم الآخر في زمن ضعف الإيمان والبعد عن خشية الله تعالى، ومنها آيات سورة التكوير، فالوقوف عندها والتنقيب عن مناجم عظمة بلاغتها وإعجازها يُجدِّد في النّفس روح الإيمان ومشاعر الخشية من الله تعالى ، والخوف من أليم عذابه لتأمن من الفزع الأكبر.

خطّة البحث :

قام البحث على تمهيدٍ ومبحثين وخاتمة :

التمهيد : عبارة عن مدخل إلى السُّورة بإلقاء بعض الضّوء على :

(أسمائها، ومكِّيّتها ، وترتيبها في النزول وفي المصحف، وعدد آياتها ، وفضلها الثابت في كتب السّنّة ، وأغراضها ومقاصدها الكبرى ، مع بيان تناسب خواتيم سورة عبس مع فواتح سورة التكوير، وتناسب مطلع السورة مع خاتمتها).

فأمّا المبحثان فقد وجدتُ السُّورة عند التأمّل في بنائها مكوّنة من مقطعين (شرطٌ وجزاء، ثم قسم وجواب)، وهما مسوقان لتقرير حقيقتين عظيمتين من حقائق العقيدة ، هما:

- **حقيقة اليوم الآخر**، وما يُصاحب قيام السَّاعة من الحوادث الكونيَّة السّماويَّة والأرضيَّة التي تقع من أوّل يوم القيامة إلى ساعة الحساب وفصل القضاء حيث يقف الإنسان بعدها على حقيقة أمره وعاقبة عمله، ومن هنا جاء **المبحث الأوَّل** وعنونته بـ : (**حقيقة يوم القيامة وما يصاحبه من أهوال**) تناولت فيه آيات السورة من الآية الأولى وحتى الآية الرّابعة عشرة ، تناولت فيه معاني آياته مع التّوقّف عند كلِّ آيـةٍ فيه مبيِّناً الخصائص البلاغيّة لمفرداتها وتراكيبها .
- **حقيقة الوحي** (القرآن الكريم) وما يتعلّق بمكانة مُبلِّغه والأمين عليه وهو جبريل عليه السَّلام بما هو حقيق به من أوصاف الكمال ، وصفة النبي الذي تلقَّاه

(١) صحَّحه الشيخ الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ٣ / ٦٩ – ٧٠ ، رقم (١٠٨١) ، كما صحّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد : ٧ / ٢٠.

والدِّفاع عنه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه ومع خالقهم الذي فطرهم وأنزل الوحي إليهم ، ومن هنا جاء **المبحث الثاني** وعنونت له بـ : (**الإشادة بالقرآن العظيم، والتَّنويه بالرسول الكريم وبجبريل الأمين**) وهذا المقطع يبدأ من الآية الخامسة عشرة وحتى نهاية السّورة ، وهو كسابقه يشتمل على وقفة تحليليَّة متأنية لكلِّ آيةٍ تستجلي الأوجه البيانيَّة في نظمها وما تُوحي به من معانٍ ونكات وظواهر بلاغيَّة .

وختمتُ البحث **بالخاتمة** : ذكرت فيها أهمّ ما توصّلت إليه من نتائج . يليها ثبت المصادر والمراجع. اهـ .

منهج البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن يعتمد على المنهج البياني القائم على تحليل الآية أو الآيات – موضع الدراسة – تحليلاً بلاغيّاً يكشف عن مطابقتها لمقتضى المقام ، ويُجلِّي المزايا البيانيّة التي تكمن وراء ألفاظ آيات كلِّ مقطعٍ وتراكيبها وعباراتها ، ويُبرز كيف تآزرت الألفاظ والتّراكيب في تحقيق غايات القرآن الكريم ومقاصده في ضوء نظرية النّظم ، والتي تنظر لقواعد البلاغة من (معانٍ) و (بيانٍ) و (بديعٍ) نظرةً تكامليّة من خلال تجاورها في كلام مؤلف منظوم ، مع جمع أقوال المفسرين حولها ، ولاسيما ذوو النّزعة البلاغيّة ممّن أولوا الألفاظ والتّراكيب عنايتهم ، كما رجعت إلى كتب متشابه النظم القرآني لإلقاء مزيد من الضوء على الآيات المدروسة ، مع الإفادة من كتب البلاغة للوقوف على ما قد يكون ورد فيها من أقوال حول الآيات المدروسة وهو قليل

وختاماً فأحسب أنني قد بذلت غاية جهدي وطاقتي في استنباط ما يثري المعنى ويتواءم مع السياق من القيم التعبيرية والبلاغية في هذه السورة الكريمة ، وأدعو صادقاً ألا يحرمني ربّي أجر الاجتهاد إن أخطأت ، ومنه ومن أجر الإصابة إن أصبت وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، والحمد لله بنعمته تتمّ الصالحات .

تمهيد

بين يدي السُّورة (أسماؤها وتاريخ نزولها، وترتيبها في النزول والمصحف،وعدد آياتها)

وردت لهذه السورة عدّة أسماء بعضها توقيفي وبعضها اجتهادي ، فسُمِّيت توقيفيّاً في أكثر كتب التفاسير والمصاحف سورة (**التّكوير**)، وسمِّيت أيضاً سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ تسميةً لها بأوّل آيةٍ افتتحت بها.

وسُمِّيت اجتهاداً بسورة (**كُوِّرت**) ؛ تسميةً بحكاية لفظٍ وقع فيها[1]، والتناسبُ واضحٌ بين اسم السورة ومضمونها ، فقد سُمِّيت باسم أوّل أهوال يوم القيامة وروداً فيها وهو تكوير الشمس حيث لم يرد وصف الشمس بهذا اللفظ في غير هذه السورة ، وهي سورةٌ مكيَّة باتِّفاق العلماء[2]، وهي من بواكير سور القرآن ، فهي السُّورة السَّابعة في ترتيب نزول سور القرآن ، فقد نزلت عقب سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى[3]، وقيل : نزلت بعد سورة المسد[4]، وترتيبها في المصحف : (٨١) ، وعدد آياتها (٢٩) آية[5]، تتمثل فيها خصائص نظم السور التي نزلت في بداية الوحي المكي من قصر سورتها وقوة معانيها وشِدَّة جرسها، فألفاظها فخمة جزلة ، يأتي التركيز فيها على ما يرتبط بالساعة من تغيير وتبديل، ويعلو فيها صوت التحذير من العذاب يوم القيامة ، يغلب فيها الأسلوب الخبري مُرسِّخاً مبادئ العقيدة.

فضلها:

يمكن إجمال فضلها الثابت في كتب الحديث الشّريف فيما يلي :

---

(١) انظر أسماء سور القرآن وفضائلها ، د. منيرة الدوسري: ٤٨٤.

(٢) انظر : الناسخ والمنسوخ للنّحاس : ٧٥٧ ، والناسخ والمنسوخ للمقري : ٢٥ ، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣، والإتقان في علوم القرآن : ١/ ٣٩، ونقط المصاحف للداني: ١٦٨، وزاد المسير لابن الجوزي : ٩/ ٣٧.

(٣) انظر تفسير التحرير والتنوير : ١٢ / ١٣٩ ، وجاء ذلك عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة . انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي : ٨ / ٤٢٥ .

(٤) انظر في رحاب القرآن الكريم : ٦٠ ، د. محمد سالم محيسن ، والمكي والمدني في القرآن الكريم : ٧٤ ، د. محمد الشائع .

(٥) انظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي : ٣ / ١٦٠ ، والبيان في عدّ آي القرآن : ٢٦٥.

• أنها من سور المفصَّل[١] التي فُضِّل بها رسول الله على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **أُعطيتُ مكان التوراة السبعَ، ومكان الزبور المائين، ومكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلت بالمفصَّل**»[٢] ، ويقول ابن مسعود ﷺ في فضل سور المفصّل : « إن لكلّ شيءٍ سناماً ، وسنامُ القرآن سورة البقرة ، وإن لكلّ شيءٍ لُباباً ، ولُبابُ القرآن المفصّل »[٣].

• أنها من السُّور التي شيَّبت رسول الله ﷺ وعجَّلت بظهور الشَّيب في شعره الشَّريف ﷺ ؛ لعظيم خوفه وخشيته من أهوال يوم القيامة التي أخبرت بها هذه السُّورة العظيمة ، فعن ابن عباس ﷺ أنه قال : « قال أبو بكر الصديق ﷺ : يا رسول الله قد شِبْتَ!، فقال ﷺ: « **شيَّبتني هود، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشَّمس كُوِّرت** »[٤]، فقد اشتملت هذه السّور العظيمة على بيانٍ لما سيأتي من مواقف عصيبة وأهوالٍ كبيرة بين يدي السَّاعة تفزع لها القلوب ، وترتعد منها الفرائص ، وتجعل الولدان شيبا.

• أنها من السور التي رغّب رسول الله في تدبر معانيها وتأمل أفكارها ، وذلك من خلال ما في خصائص تراكيبها من جماليات ، وما في نظمها من روعة بيانية تجعل

---

(١) للعلماء في تحديد سور المفصَّل ١٢ قولاً ، أصحّها أنَّه يبدأ من سورة (ق) وحتى سورة (النَّاس) ، وسُمِّي بذلك لكثرة الفصول التي بينها البسملة ، وقيل : لقلَّة المنسوخ فيه . انظر البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٤٥ للزَّركشي .

(٢) الحديث حسنٌ لشواهده ، انظر تخريجه في كتاب : موسوعة فضائل سور وآيات القرآن:١/ ١٢٨– ١٣٠ ، لمحمد رزق طرهوني ، و(السَّبع الطِّوال) هي سورة (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس)، ومن العلماء من عدَّ سورتي الأنفال وبراءة سورة واحدةً فجعل سابع الطِّوال براءة ، وأمَّا (المئون) فهي ما ولي السَّبع الطِّوال ، وهي كلّ سورةٍ بلغت مئة آيةٍ فصاعداً ، وأمَّا (المثاني) فهي ما ولي المئين ، وهي كل سورةٍ دون المئين وفوق المفصَّل . انظر البرهان في علوم القرآن :١/ ٢٤٥ للزَّركشي .

(٣) أخرجه الدارمي في سننه : ٢ / ٥٣٩ ، والطبراني في الكبير : ٩ / ١٢٩، والبيهقي في شعب الإيمان : ٢ / ٤٨٨ .

(٤) حديثٌ صحيحٌ صحَّحه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٢/ ٦٧٦، رقم الحديث (٩٥٥) ، وصححه أيضا في مختصر شمائل الترمذي : ٤٠، برقم (٣٤) ، وفي صحيح الترمذي برقم : (٢٦٢٧).

القارئ لها وكأنه ينظر إلى أحداث يوم القيامة نظرة المشاهد لواقع يراه بعينيه ، فقال ﷺ : «**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأي عينٍ فليقرأ** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(١) ، وقد بدأ رسول الله حديثه هذا بأسلوب شرط ضمّنه كثيرا من وسائل التشويق والإثارة لتحقيق يقظة المخاطبين لمتابعة الخبر ، حيث صدّره بأداة الشرط (**مَنْ**) التي تنادي بكل عاقل ليحوز الخير العاجل مع ما ينتظره من الثواب الآجل ، واختار فعل السرور (**سرّه**) ليكون فعل الشرط فيه مداعبة لوجدان المؤمنين بما يمنّي النفس بكل محبوب ، فالنفوس كلفة بكلّ ما يحقق لها السرور والسعادة ، ومجيؤه في صيغة ماضوية فيه إشعار بتأكد حصوله وكأنه تحقق ووقع ترغيبا في المسارعة إليه وللحمل على الخير المتضمن في الجواب الذي كان الشرط بسببه ، والتعبير النبوي بالمصدر المنسبك من (أَنْ) والفعل دون المصدر الصريح (النَّظْر)؛ لأن التعبير بالمصدر المنسبك من (أَنْ) والفعل المضارع مع دلالته على ما يدل عليه المصدر يدل على التجدّد والاستمرار الذي يُوحي بتجدد (النظر إلى يوم القيامة)كلما جدّد قراءة لهذه السور العظيمة، وذلك مما يُشجّع على دوام هذا القراءة لهذه السور الثلاث مع التّدبّر ، والشرط بطبيعته من أساليب التشويق لما بعده ؛ لأن المخاطب إذا طرق سمعه الشرط استشرفت نفسه للجواب وتطلعت إليه فإذا ما ورد «...فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾» وقع من النفوس والقلوب موقعا حسنا ، ويتميز أسلوب الشرط الذي بني عليه الحديث النبوي بأنه يجعل المخاطب بعد وضوح الجزاء والعاقبة حُرّ الاختيار، ولا يفرض عليه فرضاً ، فهو يوضح الحقيقة المجردة ويبيّن الحكم العام لكي يتيح للإنسان حرية الرأي واستقلال التفكير ليُسأل كل فردٍ عن عمله ويتحمّل كل امرئٍ مسئوليته ، وأسلوب الشرط من أوفى الأساليب

(١) صحَّحه الشيخ الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ٣ / ٦٩ – ٧٠ ، رقم (١٠٨١) ، كما صحّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد : ٧ / ٢٠ .

بذلك ، ويلاحظ أن رسول الله ﷺ شبَّه قوة التخيُّل لهذا الموقف الغيبي المفزع من خلال قراءة هذه السور والتأمل فيها بحال المشاهد له بكلتا عينيه بجامع : قوة التصوّر ليوم الفزع الأكبر من خلال هذين الطريقين ، وأداة التشبيه (كأنَّ) تؤكِّد تشبيهاً حمل دقائق تشترك فيها الصورتان ، ولا شكّ أن المؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر حقّ الإيمان يسرّه أن يتحوَّل الغيب الذي آمن به إلى مرئي مشاهد ، أو كأنه مرئي مشاهد تجول العين في أحداثه فيقع السّرور في قلبه لتحقُّق ما وعد به ربّه .

وفي الحديث الشريف إشارة إلى خصوصية النظم القرآني القادر على تصوير الغيب وكأنه واقع تراه العين، وهذا ما يسعى البحث إلى معرفة كنهه،وتتبع طرائقه في سورة التكوير.

● أنها من السّور النَّظائر التي كان النَّبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الليل، فقد كان رسول الله ﷺ يقرن بين هذه السورة وسورة الدخان في صلاة الليل فيقرؤهما في ركعة واحدة ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه : «إني لأعلم النَّظائر التي كان رسول الله يقرن بينهن ، سورتين في كل ركعة[١] .. وذكر أنه يقرن بين سورة الدخان وسورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[٢] .

أغراض السورة ومقاصدها الكبرى :

سورة التّكوير مسوقة لبيان حقيقتين كبيرتين من حقائق العقيدة الإسلاميَّة ، هما :

● حقيقة اليوم الآخر وإثبات البعث والنّشور ، وبيان ما يسبق ذلك من أهوال الساعة وأشراطها التي تقع في آخر الحياة الدنيا ، وما يعقبه من أهوال عظيمة مفزعة تقع في يوم الفزع الأكبر ، يتبعها الحساب على الأعمال والجزاء عليها إمَّا بالجنَّة التي تُقرّب للمتقين أو النّار التي تُسعّر لأصحاب الجحيم ، ففيها تهديدٌ شديدٌ بيوم الوعيد ، وترغيب عظيم في العمل الصالح المنجي من عقبات ذلك اليوم العصيب ، وذلك يبعث في النفوس السّويّة أهمية الاستعداد له .

● التَّنويه بشأن القرآن الكريم ببيان أنَّه منزّل من عند الله جلّ جلاله ، فيه كلّ الهدى والموعظة لمن أراد الاستقامة والرّشاد وعزم على فعل الخير ، مع الإشادة بالملك

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢)، ومسلم (٨٢٢) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٩٨).

الذي تحمّله، وبيان عظيم مكانته عند ربِّه؛ إذ بواسطته نزل الوحي على رسول الله ﷺ، فكان سفيرا أمينا منزَّهاً عن التهمة ، بريئاً من النّقص ، ثم انتقل بالحديث إلى إثبات نبوّة نبيّنا محمد ﷺ ، ونفْي ما كان يتقوَّله عليه كفار قريش وغيرهم من مزاعم باطلة ، وخُتمت السورة بإثبات أنَّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله جلّ جلاله ، وليس لها استقلالٌ بالعمل[1].

تناسب خواتيم سورة عبس مع فواتح سورة التكوير :

كلتا السورتين تشرحان أحوال يوم القيامة وأهوالها ، فقد جاءت خواتيم سورة عبس في الحديث عن يوم القيامة وما يقع فيه من أهوالٍ وحسابٍ وجزاء للمؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾، فكأن هذا الختام مظنة لاستفهام سائل : وما يسبق ذلك اليوم العظيم من أهوالٍ وعلاماتٍ ، ومتى يكون ؟ ، فجاءت بداية سورة التكوير في الحديث عن أمارات ذلك اليوم بذكر اثنتي عشرة علامة ، ويمكن أن يقال : إنَّ أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ظرف لما يستقبل من الزمان ، وكأن سورة التكوير صوَّرت وقت ذلك المجيء للصّآخة بما فيها من أهوال ، يقول البقاعي : « لمّا خُتمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصّاخة ؛ لجحودهم بما لهذا القرآن من التّذكرة ، اِبتُدئت هذه بإتمام ذلك ، فصوّر ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأي عين »[2].

(١) انظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : ٣ / ١٦١ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :١/ ٥٠٣ ، وتفسير في ظلال القرآن : ٦/ ٣٨٣٦ ، وأهداف كلّ سورةٍ ومقاصدها في القرآن الكريم : ٤ / ٤٦

(٢) نظم الدّرر في تناسب الآيات السّور : ٨ / ٣٣٥ ، وانظر البرهان في تناسب سور القرآن : ٢٠٤ .

تناسب مطلع السورة مع خاتمتها :

في بيان العلاقة بين مطلع السورة وخاتمتها وجدت أن سورة التكوير افتتحت بقوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما بعدها من أحداث عظيمةٍ الفاعل الحقيقيّ لها هو الله تعالى نشأةً وبدايةً ونهايةً ، وما يتعلَّق بالقيامة أو ما يصاحبها من أحداثٍ كلّ ذلك دليل على طلاقة قدرته تعالى ، وخُتمت السّورة بقوله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فحَصْر المشيئة في الله وحده يتلاءم مع تلك الأحداث العظيمة التي تحدث بأمر الله تعالى ممّا يؤكِّد طلاقة القدرة ، وقد أشار لذلك البقاعيّ بأنَّ المتأمّل في نظم الآيتين يُدرك أن المتّصف « بالربوبية صحّ تصرّفه في الشمس وما تبعها ممّا ذكر أول السورة لإقامة الساعة لأجل حساب الخلائق والإنصاف بينهم بقطع كلّ العلائق، كما يفعل كلّ ربٍّ مع من يربيّه ، فكيف بأحكم الحاكمين وأرحم الرّاحمين ، فقد التقى طرفاها على أشرف الوجوه وأجلاها ... » [(١)] .

واكتفى السيوطي في الحديث عن ذلك بقوله: « أولها : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وآخرها : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ »[(٢)] ، ولعلَّه يريد أن مطلع السّورة جاء لتقرير علامات الساعة وما يقع بعده من البعث والنشور ، وآخر السورة فيه الإشادة بالقرآن الكريم الذي كذَّب به المشركون ؛ لأنه أوعدهم بالبعث ، فجاء قوله تعالى في سياق الإنكار عليهم : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ، والمراد به : أيّ طريق تسلكون في إنكاركم القرآن الكريم وإعراضكم عنه ، ويحتمل مع هذا معنى آخر يتناسب مع قوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ أي إذا وقعت هذه الأشياء وقامت الساعة ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ لا مفرّ من حضوركم وحسابكم على تكذيبكم وكفركم .

(١) نظم الدّرر في تناسب الآيات السّور : ٨ / ٣٤٦ .

(٢) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع : ٧٨ .

المبحث الأوَّل

حقيقة يـوم القيامة وما يصاحبه من أهوال

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

تصف آيات هذا المقطع الأهوال العظيمة الغريبة التي تقع في أوَّل يوم القيامة، والمشاهد الغيبية المفزعة التي تحصل عند قيام السَّاعة مؤذنةً بخراب الدُّنيا وفنائها ، وبطلان الحياة والمعيشة في الأرض ؛ إذ كلُّ شيء يخرج عن موضعه ، ويصبح شيئاً آخر جديداً غير ما عهدناه في الدّنيا ، فهي مشاهد غريبةٌ في هيئتها ، رهيبةٌ في صورتها ، تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب .

وقد ذكر الله ﷻ اثني عشر حدثا من الحوادث الكونيَّة (السماويَّة والأرضيَّة) التي تُصوِّر انقلاباً كبيرا في الوجود المتعارف عليه ، وتحوُّلاً رهيبا في الكون المألوف من حولنا ؛ ليُفخِّم شأن ذلك اليوم الطّويل ، ستّة منها تقع في آخر الحياة الدُّنيا عند أوَّل يوم القيامة ، وهي :

١. جمع الشَّمسُ ولفّها وطيّها ومن ثمّ رميها ، فتختفي عن العيون ويذهب ضوؤها ، وبُدئ بالشّمس ؛ لأنّها تنير الكون فإذا لُفّت ورُمي بها أظلمت السّماء ، فأظلم الكون كلّه فيتنبّه النّاس إلى بدء فناء الدّنيا وخرابها ؛ ولأنّ الخراب يبدأ من السّقف ، والشمس أبرز آيات السّماء التي هي السقف من فوقنا .

والأصل في التّكوير : اللفّ والليّ من قولهم : « كار العمامة على رأسه وكوَّرها » بمعنى لفَّها ، فاستعاره لِلفِّ جرمها أو لِلفِّ ضوء الشمس المنبسط في الآفاق على سبيل الاستعارة التبعية بجامع السّتر في كلٍّ ، استعارة محسوس مشاهد من واقعنا لمحسوس غيبي خفي عن الناس ، فكما تُكوّر العمامة على الرّأس ويلفُّ اللباس على اللابس

فيغيب الملفوف باللفافة ويستره بتتابع أكوار العمامة ، فكذلك الشمس يُفعل بها يوم القيامة تُلفّ ويُجمع بعضها على بعض من كلّ جوانبها فتصير سوداء مظلمة ، وتُغيّب بعد ظهورها وإشراقها ، فيعمّ الظّلام الكون كلّه .

انكدار النُّجوم المضيئة وتساقطها من أفلاكها على الأرض بعد انهيار السماء ومورها موراً عظيماً ، فيُطمس نورها ويذهب ضياؤها ، والآيتان السابقتان تحدَّثتا عمَّا هو مشاهد في السماء نهاراً (الشمس) ، و ليلاً (النّجوم) ، وبدأ بأعلام السّماء قبل أعلام الأرض ؛ « لأنَّها أشهر وأعمّ تخويفاً وإرهاباً ، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمّها نفعاً » (١) .

ويرى بعضهم أن إسناد فعل الانكدار إلى الضمير العائد إلى النجوم مجاز عقلي ؛ لأن النجوم لا تقدر على الانتثار من تلقاء نفسها ، فهي ليست الفاعل الحقيقيّ لهذه الحركة ، بل بأمر الله سبحانه وتعالى وقدرته ، والحقّ أن إسناد الانكدار للنجوم على الحقيقة وليس على المجاز ؛ لأن المعول عليه في الحكم على الإسناد بالحقيقة أو المجاز مردّه إلى اللغة ، فما عرف في اللغة نسبته إلى فاعل معين بحيث لا يعرف فيه نسبة إلى غير هذا الفاعل فهو حقيقة ، كما في قولنا : « قام زيد أو مرض علي أو مات.. » ، فزيد غير مؤثر القيام بل هو واقع بخلق الله تعالى ، ولكن نسبة القيام إليه حقيقة ، وكذا في مرض أو مات ، فالعرب لم تستعمل هذه الأساليب إلا على أنها حقائق ، فالفاعل إذا تصف بالفعل اتصافا حقيقيّاً فهو حقيقة ، وإسناد الانكدار للنجوم من هذا القبيل ؛ لأن النجوم اتصفت بهذا الفعل اتصافا حقيقيّاً ، فليس في الآية مجاز عقليّ ، كما أن قصد الملاحظة والتجوّز هنا غير موجود ، هذا فضلا عن أن انكدار النجوم حدث أخروي يقع يوم القيامة وأمور الآخرة لا تقاس على ما يقع في الدنيا ؛ لأن المقاييس فيها مختلفة ، فما الذي يمنع أن يحدث ذلك من النجوم حقيقة ؟!

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور : ٨ / ٣٣٦ .

والتعبير القرآني بصيغة المطاوعة موحٍ هنا بقوة الحركة التي تجعل النجوم تنكدر ، كما يدل ذلك على السرعة المفرطة المقترنة بالهول الشديد يوم الساعة ، كما يُشعر فعل المطاوعة بيسر هذه الحركة على القدرة الإلهيّة التي لا يعجزها شيء ، وطواعية حدوثها وتلقائية وقوعها .

وقد تنوّع التعبير القرآنيّ وتكرَّر عن محو آثار النجوم وإزالتها في أهوال يوم القيامة تأكيداً له ، فتارةً يُعبَّر بالانكدار في هذه الآية : ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، والانكدار كما يعني سرعة تساقطها فإنه يوحي بتغير معالمها وذهاب لونها على سبيل الاستعارة بتشبيه ذهاب ضوئها بتكدير الماء المذهب لصفائه ورونق منظره ، وكدرة العيش الدال على خلاف طمأنينة الحياة ، فالنجوم المنيرة المضيئة إذا انفصم رباطها تناثرت ، وخبا نورها فأظلمت وفقدت بهاءها ، فتكون على صورة كدرة بغيضة .

وتارةً يعبر بانطماس النجوم وذلك في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [سورة المرسلات]، « وهذه استعارةٌ ، والمرادُ بطمس النّجوم – والله أعلم – مَحْو آثارها ، وإذهاب أنوارها ، وإزالتها عن الجهات التي كان يُستدلُّ بها ويُهتدَى بسمتها ، فصارت كالكتاب المطموس الذي أَشْكلت سطوره واستعجمت حروفه، والطمس في المكتوبات حقيقة ، وفي غيرها استعارة » (١).

وتارةً يعبر بانتثار الكواكب إن قصد بها النجوم وذلك في قوله تعالى:﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [سورة الانفطار] ، وذلك على سبيل الاستعارة المكنيَّة التي تقوم على تشبيه إزالة الكواكب وتساقطها من السماء باللآلئ المتساقطة إذا انفرط عقدها وبالجواهر التي قطع سلكها فتناثرت ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الانتثار ، وهذا من تفنّن القرآن الكريم في التَّعبير ، وتنوّعه في تأدية طرائق تركيب الكلام ، إمعاناً في التَّحدِّي والإعجاز للعرب المخاطبين ، وإظهاراً للفصاحة في أسمى صورها وأعلى مراتبها ، وطرداً للسآمة والملل عن نفوس القرَّاء ، فضلاً عن التأكيد والتَّقرير المتحقِّق

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٥٨ .

في النّفوس من جرَّاء هذا التّكرار ؛ لتفخيم شأن أهوال ذلك اليوم العصيب ، وقديما أشار الرماني إلى أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم (التصريف) تصريف المعنى الواحد في دلالات متعددة وطرق وتراكيب متنوعة ، فالمعنى الواحد تراه موزَّعاً في سور عدّة في دلالات مختلفة ، كل دلالة تناسب سورتها ؛ لأن كل سورة لها مقامها وسياقها ، والقدرة على الإتيان بالمعنى الواحد في معارض مختلفة متساوية في أعلى مراتب البلاغة يقطع حجة المشركين ، ويؤكد أن الله الذي قدر على هذه السور يقدر أن يأتي بما شاء من مثل القرآن [(١)] ، وربما دلت تلك الاستعارات المتعددة على تعدّد المراحل ابتداء بالانكدار الذي يليه الطمس ثم الانتثار والتساقط على غير نظام ، فلا يكون ثمّت تكرار .

٢. تسيير الجبال وإزالتها عن أماكنها ، وهذه من المراحل الأخيرة في إفناء الجبال وقت قيام السّاعة ، فإفناءُ الجبال – التي شبّهها الله بالأوتاد ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ] لتثبيتها الأرض وحفظها أن تميد وتضطرب – له أحوالٌ متعدِّدة يوم القيامة ، عبَّر البيانُ القرآنيّ عنها في عدَّة مواضع منه بما يشي أن إفناءها وقت قيام الساعة يمرّ بمراحل مختلفة أجملها الفخر الرّازي في مراحل ست تصير بعدها إلى عدمٍ ، فقال عنها : « اعلم أنّ الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوهٍ مختلفةٍ ، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله ، وهو أن أوَّل أحوالها : الاندكاك وهو قوله تعالى : ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحآقة] ، والحالة الثانية لها : أن تصير كالعهن المنفوش ، وذكر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القارعة] وقوله : ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [سورة المعارج] ، والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء ، وذلك أن تتقطع وتتبدّد بعد أن كانت كتلة واحدة كالعهن ، وهو قوله : ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [سورة الواقعة] ، والحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدِّمة قارّة في مواضعها،

(١) انظر النكت في إعجاز القرآن : ١٠٢ .

والأرض تحتها غير بارزة ، فتنسف عنها بإرسال الرّياح عليها ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة طه] ، والحالة الخامسة : أن الرِّياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيِّرها شعاعاً في الهواء كأنّها غبار ، فمن نظر إليها من بُعْد حسبها لتكافئها أجساماً جامدة، وهي في الحقيقة مارّة ، إلا أنّ مرورها بسبب مرور الرّياح بها، صيَّرها مندكّة متفتتة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة النمل] ، ثم بيَّن أنَّ تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الكهف] ، والحالة السادسة : أن تصير سراباً بمعنى : لا شيء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً ، كما أن من يرى السّراب من بُعْدٍ إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً ، والله أعلم » [(١)]، ويقول القرطبي : « وأوّل ما تتغيَّر الجبال تصير رملاً مهيلاً ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة المزمل] ، ثم عهناً منفوشاً ، ثمّ هباءً منبثّاً » [(٢)] ، ويلاحظ أنَّ هذا التَّنوّع في التَّعبير القرآنيّ عن إهلاك الجبال ولينها بعد الشِّدَّة وتفرُّقها بعد الاجتماع صَاحَبَه تنوُّعٌ في المشبّه به الذي شُبِّهت به الجبال (العهن المنفوش والكثيب المهيل والهباء المُنبثّ والقاع الصّفصف ومرور السّحاب والسَّراب) وكلّ ذلك لإظهار عظيم قدرة الله تعالى في تغيير هذه الجبال العظيمة وتبديلها على مراحل متعدّدة لكلِّ مرحلةٍ صفة خاصة يشاهدها الناس وقت قيام السّاعة مع تلاؤم كل مشبه به مع جو السورة التي وردها فيها واتساقه وانسجامها مع خصوصيَّة سياقها ، وتسيير الجبال في سورة التكوير تغيير مقرون بالحركة وهو مناسب لسياقه الذي يتّسم بالحركة في تكوير الشمس وانكدار النجوم وحشر الوحوش وفوضى حركة العشار بعد انصراف راعيها ..الخ .

٣. ترك النُّوق العشار الحوامل التي في بطونها أولادها وقد مرَّ لحملها عشرة

(١) مفاتيح الغيب : ٣١/ ١٢ – ١٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢١ / ٢٢٨ .

أشهر مهملة مسيّبة بلا راعٍ ؛ لما دهمهم من أهوال يوم القيامة فيُنسى أمرها فتذهب حيث تشاء ، والتَّعبير بـ(تعطيل العشار) كنايةٌ عن عظيم الهول وشدَّة الكرب الذي يُشاهده النَّاس في يوم الفزع الأكبر، فالنّوق العشار وهي أكرم الأموال لدى العرب وأعزّها عندهم تُهمل في ذلك اليوم ولا يُعتنى بشأنها لاشتداد الخَطْب وفداحة الهول ، واختيارها (أي العشار) رمز للنَّفاسة وغلاء الثّمن دون غيرها من الأموال ؛ لأنّها أكرم مالٍ وأَنْفسه لدى العرب المخاطبين ، وفي ذلك ملائمة من القرآن الكريم لأحوال المخاطبين ، يقول الأعشى مادحاً :

هـــو الواهـــب المائـــة المصـــطفاة إمَّـــا مخاضـــاً وإِمَّـــا عشـــارا [١]

ويرى بعضهم أنّ هذه الآية من الاستعارة التمثيلية ؛ لأنّ يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، ولكن مثّل هول يوم القيامة بحال لو كان للرّجل نوق عُشراء لعطّلها وتركها واشتغل بنفسه ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة [٢] .

والأولى حمل المعنى هنا على الحقيقة لا على المجاز وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن هذه من آياتٍ ست تقع حقيقةً في الدنيا قبيل يوم القيامة .

حَشْرُ الوحوش وجَمْع الحيوانات التي ليس في طبعها التَّأَنُّس ببني آدم فتختلط بالناس من هول القيامة ، ويُقتصّ لبعضها من بعض فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ ، وقيل : (حشرها) موتها وهلاكها ، فالعرب تقول إذا أضرَّت السَّنة بالنّاس وأصابتهم بالقحط والجَدْب (حشرتهم السّنة) أي أهلكتهم [٣] .

وعلى هذا يكون الحشْر هنا كناية أخرى عن هول ذلك الحادث العظيم ؛ لأنَّ هلاكها وموتها يكون من شدَّة الفزع الذي تُشاهده ، وعظيم مبلغ الهول الذي تراه ،

(١) انظر ديوان الأعشى : ١٠١ ، و(المخاض) المتهيئة للنتاج .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٢٢ / ٩٥ للقرطبي ، وفتح القدير : ٥ / ٣٨٨ .

(٣) نُسب هذا القول لابن عباس. انظر تفسير جامع البيان في تفسير القرآن:٣٠/ ٦٧ ،والدرّ المثور:٨/ ٤٢٨.

وكلتاهما كناية عن صفة ؛ لأن الموصوف قد ذُكر ونُسبت إليه صفة لم تُرَد هي بعينها ، وإنما أُريد لازمها ، وقد عبَّرت كلتا الكنايتين عن المعنى ولازمه في صورةٍ حيَّةٍ محسوسةٍ مشاهدة رسمتها الكلمات ، فأبرزت المعنى مصحوباً بدليله.

٤. تسجير البحار أي تُفجَّر بالزَّلازل ، فيختلط بعضها في بعض وتعود بحراً واحداً ، وقيل : تجعل مياهها نيراناً وتُوقد فتصير ناراً تضطرم يُعذَّب بها أهل النار[١] ، وقيل : السَّجْر في كلام العرب من الأضداد فهو يدلّ على الامتلاء والفراغ ، وعليه فإنّ معنى (سُجِرَت) مُلئت حتى فاض ماؤها وساح على وجه الأرض ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ ﴾ [سورة الطّور][٢]، وقيل : غيض ماؤها وذهب .

وفي التعبير هنا عن حال البحار بالتّسجير غرضٌ بلاغيّ يقتضيه ملائمة سياق آيات السورة وتناسبها ، وذلك ظاهرٌ من التأمّل في هذه الآية مع نظيرتها في قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴾، فإنّه عبَّر في التَّكوير بتسجير البحار وهو اشتعالها ناراً كما يسجّر التّنور ، وهذا المعنى مناسبٌ وموافقٌ للوعيد بتسعير الجحيم المتوعّد به في آياتٍ بعدها في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴾، فالبحار « تُسجَّر فتصير ناراً، فتُسجّر بها جهنم»[٣]، يقول الإسكافي: «ومعنى : سُجِّرت البحر: أُوقدت فصارت ناراً كما سُجِّر التّنور ، وقيل : المراد بها بحارٌ في جهنم تملأ حميماً ليعذّب بها أهل النّار ، فكان ذكر هذا المعنى حيث وقع التّوعّد بتسعير الجحيم أشبه وأولى»[٤].

ويسوق ابن الزبير الغرناطي وجهاً آخر للتناسب حاصله أن تسجير البحار هنا بمعنى امتلاؤها واجتماع مياهها من قولهم : (سجرت التنور) إذا ملأته بالحطب ،

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن : ٣٠ / ٤٤ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٢ / ٩٨ للقرطبي ، والبحر المحيط : ٨ / ٤٣٢ .

(٢) قاله الزجاج في معانيه : ٥ / ٢٩٠ .

(٣) كشف المعاني في المتشابه المثاني : ٤١٥ .

(٤) درَّة التنزيل وغرَّة التأويل : ٣ / ١٣٣٦ ، وانظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن : ٢٤٦ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :١/ ٥٠٤ ، وفتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن : ٣٢٤ .

وذلك مناسبٌ للآية قبلها والآية بعدها في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ ، فالوحوش تُحشر وتُجمع ، وكذا البحار تُجمع مياهها ، والنفوس تُزوّج ويجمع بعضها إلى بعض ، «وحشر الوحوش وتزويج النفوس وتسجير البحار هذا كله اجتماع وائتلاف يُناسب بعضه بعضاً ... فالتحام هذه الجمل في السورة أبين التحامٍ وأوضحه ملاءمة وتناسباً » [(١)] .

وأما في سورة الانفطار فاختصَّت البحار فيها بالانفجار لمناسبته مطلعها ، فإن مطلعها متضمّن لأشياء يحكم الله تعالى يوم القيامة بتغيُّر أوصافها ، وانتقالها عن أماكنها، وزوالها عن مواضعها ، وهي انفطار السماء وانشقاقها ، وانتثار الكواكب وتساقطها ، وبعثرة القبور وتقليبها ، وكذا البحار تُفجَّر ويفتح بعضها على بعض، فيفيض الماء على وجه الأرض وتزول البحار عن أماكنها فيتساوى بالماء لجج البحار ورؤوس الجبال [(٢)] ، فالإخبار عن البحار بالانفجار هنا أنسب في هذا السياق ، يقول ابن الزبير الغرناطي : « ... وإنّما خُصَّت سورة الانفطار بلفظ الانفجار ليُناسب مطلع السورة وافتتاحها ، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح والمالح إلى العَذْب وبعضها إلى بعض انفطار ناسب انشقاق السماء وانفطارها ، فانفطار السماء وانفجار البحار وبعثرة القبور وانتشار النجوم كلّ ذلك متناسبٌ أوضح تناسب وأبينه ... » [(٣)] .

ويمكن الجمع بين (**تسجير البحار وتفجيرها**) إضافةً لما سبق بالقول : إنّ تنوّع التّعبير جاء بالنظر إلى طول يوم القيامة ، فالبحار تُجمع مياهها ، ثم تصير ناراً مسجَّرة ، ثمّ يُفجّر بعضها ببعض لشدة حرارتها ، فيصير التّسجير في وقتٍ ، ثمّ التّفجير في وقتٍ تالٍ ، فجاء التّعبير متنوّعاً بتنوّع أحوالها ومراحلها التي تصير إليها عند قيام الساعة .

---

(١) ملاك التأويل : ٢ / ١١٣٧ .

(٢) انظر درة التنزيل وغرة التأويل : ٣ / ١٣٣٦ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن : ٢٤٦ ، وكشف المعاني في المتشابه المثاني : ٤١٥ ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز :١/ ٥٠٤ .

(٣) ملاك التأويل : ٢ / ١١٣٧ .

ثمّ ثنّى الله – جلّ جلاله – بذكر ستّة حوادث عِظَام تقع في الآخرة بعد البعث، وهي :

١. تزويج الأرواح وقَرْنها بأبدانها، فبعد أن كانت النّفوس والأرواح منفردة عن البدن من حين الموت فإنها تعود إليه عند البعث والنّشور، وقيل المراد : جَمْع كلِّ شكل إلى نظيره فنفوس المؤمنين تُقرن بالحور العين، ونفوس الكافرين تقرن بالشَّياطين، وقيل : يُلحق كلّ امرئٍ بشيعته وطائفته، ويضمّ الشّكْل إلى شكْله فالمؤمنون بالمؤمنين، الصَّالح منهم مع الصَّالح والفاجر مع الفاجر، واليهود باليهود، والنَّصارى بالنَّصارى، والمجوس بالمجوس، والمنافقون بالمنافقين [(١)]، وقيل : تُقرن النّفوس بجزائها وأعمالها [(٢)].

٢. الطفلة الصغيرة التي كانت تُدفن حيَّةً في التّراب في الجاهليَّة تُسأل بحضرة وائدها عن الذَّنب والسّبب الذي قُتلت لأجله – وهو سبحانه أعلم به – ؛ وتوجيه السؤال لها فيه إثارة للإشفاق والرحمة بهذه الضعيفة ؛ وتوبيخ لقاتلها وتشنيع لصنيعه، وتفظيع لهذا الأمر وتهويل فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى عادةٍ سيِّئةٍ من عادات أهل الجاهليَّة قبل الإسلام وهي وأد البنات وقتلهنَّ وهنَّ أحياء ؛ مخافة العار أو الحاجة والفقر، وإنَّما سُمِّيت (موءودةً)للثِّقل الذي يُلقى عليها من التُّراب، واللهُ جل جلاله أخبر في هذه الآية أنَّه يُوبِّخ قاتلها بسؤالها عن السبب الذي لأجله قُتلت، فالسؤال والاستفهام هنا موجَّهٌ إلى غيرِ المقصود سؤاله، ليكون جوابها أشدّ وقعاً على الوائد، فإنّها ستُجيب أنها قُتلت بلا ذنبٍ جنته أو جُرْمٍ ارتكبته، ليحصل كمال التَّوبيخ والتَّعنيف للمقصود الحقيقيّ بالسؤال وهو القاتل، وإدخال الغمِّ على قلبه، ولإظهار كمال الغيظ عليه والغضب منه، قال الزّمخشري : «فإن قلت : ما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها التي قُتِلت به ؟ وهلاَّ سُئِل الوائد عن موجب قتلها لها ؟ ، قلت : سؤالها وجوابها تبكيتٌ لقاتلها » [(٣)]، وقال الشوكاني :

---

(١) اختار هذا القول الطبري في جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٠ / ٦٩ ، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٨ / ٣٥٥ .

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن : ٥ / ٢٩٠ .

(٣) الكشاف : ٤ / ٢٢٣ ، وانظر : معاني القرآن للزجاج: ٥ / ٢٩٠.

«وتوجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يُخاطب ويُسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخٌ له شديد » [١] ، وإذا كانت الموؤدة في الدنيا لا عقل لها ولا فهم فإنه غير ممتنعٍ توجيه الخطاب لها في الآخرة ؛ «لأن الخطاب وإن عُلِّق عليها ، وتوجّه لها فالغرضُ في الحقيقة غيرها » وهو تبكيت الظالم لا خطاب الطفلة الرضيعة ، ويحتمل أنّهنَّ «عند دخول الجنان تكون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وإن عقولها تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجّه الخطاب إلى المؤودة ؛ لأنها تكون في تلك الحال ممّن تفهم الخطاب وتعقله »[٢].

وحكم الشريف الرَّضي بأنَّ سؤالها هنا «استعارة ، والمرادُ – والله أعلم – أنَّها سُئلت لا لاستخراج الجواب منها ، ولكن لاستخراج الجواب من قاتلها ، ويكون ذلك على جهة التَّوبيخ للقاتل إذ قتل من لا يُعرب عن نفسه ، ولم يُذنب ذنباً يُؤخذ بجريرته»[٣].

ويُسمِّي الطيبيّ هذه الطّريقة من طرائق الاستفهام بـ (**الاستدراج**) والمراد به : «سلوك طريقٍ تُوصِل إلى المطلوب بسؤالِ غير المذنب ونسبة الذّنب له حتى يبين من صدر عنه ذلك ، وهو فنٌّ من البديع بديع » ، « فالمجنيُّ عليه إذا سُئل بمحضر الجاني ونُسِبت له الجناية دون الجاني، بعث ذلك الجاني على التَّفكّر في حاله وحال المجنيّ عليه، فيرى براءة ساحته ، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب ، وهذا استدراجٌ على طريق التّعريض ، وهو أبلغ من التَّصريح » [٤] ، ففيها تعريض بالوائدين الذين قتلوا بناتهم بلا موجب لقتلهن ، ولهذه الطريقة في الاستفهام – أعني تقرير من لا دخل له في الجرم الشنيع – شواهد متعدِّدة في القرآن الكريم كقوله تعالى مخاطبا الرسل: ﴿ يَوْمَ

(١) فتح القدير : ٥ / ٣٨٩ .

(٢) أمالي المرتضى : ٢ / ٢٤١ .

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٥٩ .

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : ٧ / ٤٢٥ .

﴿يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة المائدة] ، وقوله تعالى على طريق التوبيخ لقوم عيسى عليه السّلام وإقامة الحجَّة عليهم : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة المائدة] .

والشريف المرتضى بعد أن ساق الوجه السابق جوَّز وجهاً آخر في معنى ﴿سُئِلَتْ﴾ وهو «أن يكون المراد أن قاتلها طُولب بالحجَّة في قتلها ، وسُئل عن قتله لها ، وبأيِّ ذنبٍ كان ، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجَّة، فالقَتلة هنا هم المسؤولون على الحقيقة لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسئول عنها، ويجري هذا مجرى قولهم : سألتُ حقّي، أي طالبتُ به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الإسراء] »[1]، وهو ما عناه أخوه الشريف الرضي بقوله : «وقيل: معنى ﴿سُئِلَتْ﴾ أي طُلب بدمها ، كما يقول القائل : سألتُ فلاناً حقِّي عليه ، أي طالبته به »[2] .

والجمهور على قراءة الفعل المبني لما لم يُسمَّ فاعله ﴿قُتِلَتْ﴾ بدون تشديد[3] على أصل الإخبار بأنَّ الفتاة الموءودة ستُسأل يوم القيامة عن الذَّنب الذي ارتكبته ، وَوُئِدت من أجله، وجاءت قراءة أبي جعفرٍ بتشديد التاء الأولى ﴿قُتِّلَتْ﴾[4]، ولما كانت القاعدة (زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى) ، فإنَّ التَّشديدُ يدلُّ على شيوع هذه العادة الذَّميمة في أهل الجاهليَّة، ويُنبئ عن انتشار تقتيلهنَّ وتكرار حدوثه في قبائل الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام ؛ فكثيرات هنَّ البنات اللاتي ذهبن ضحيَّة لهذه العادة المقيتة حتَّى شعَّ نور الإسلام فحفظ كرامة المرأة وصانها وسفَّه فاعلي ذلك بقوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا

(١) أمالي المرتضى : ٢ / ٢٤٠

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٥٩ .

(٣) انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ٢ / ٣٩٨ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ٨ / ٤٣٣ ، وإتحاف فضلاء البشر للبنَّا الدمياطي : ٥٩٢.

(٤) انظر : إتحاف فضلاء البشر : ٥٩٢ .

كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ [سورة الأنعام] ، يقول السَّمين الحلبيّ : «المراد اسم الجنس فناسبه التَّكثير»[(١)]، وإنما خصَّ هذا الذنب بالسؤال عنه مع أن الذنوب التي يُسأل عنها في هذا اليوم كثيرة ؛ لما فيه من فظاعةٍ وشناعةٍ تنذر بعذاب فظيع وشنيع

٣. كُتُب الأعمال تُنشر بين النّاس وتُظهر للحساب والجزاء ، فيُعطى كلّ إنسانٍ كتابه منشوراً بيمينه أو بشماله على قدر عمله وجزائه في الدّنيا .

٤. السَّماء تُشقَّق وتُقشَّر وتُزال عمَّا فوقها بقوة عظيمة وسرعة زائدة كما يُكشط جلد الشَّاة ويُسلخ عنها إهابها ، فاستعار (**الكشط**) لمعنى الإزالة مع شدة الالتزاق به على سبيل الاستعارة التبعية في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

٥. والجحيم تُسعَّر وجهنم توقد وتلتهب نيرانها التهاباً عظيماً ؛ غضباً من خطايا بني آدم ، واستعداداً لتلقِّي الكفرة والمذنبين، وجاء فعل تسعيرها مشدَّدا مثقَّلاً ﴿سُعِّرَتْ﴾؛ «لأن حرّها شدِّد عليهم»[(٢)]، ويلزم من ذكر تسعيرها أنهم يرونها عيانا مكشوفة فيتحسرون غاية الحسرة على أنهم مسوقون إليها ، وقد جاء التَّصريح بـ (**إبرازها**) في غير ما آيةٍ من كتابه الحكيم ، فقال تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة الشعراء] ، وقال تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النازعات] .

٦. والجنَّة تُقرَّب للمتَّقين وتُدنى من أهلها؛ تكريماً لهم ليدخلوها ، ولكمال العناية بهم وزيادة التشريف لهم كما قال تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الشعراء] ، وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة ق] ، والتعبير بـ (**الإزلاف**) يشعر بغاية تقريب الجنة من المتقين بحيث يرونها من الموقف فيفخرون بأنهم المحشورون إليها ، وهو يشير إلى قرب الدخول وتحققه ، ويمكن أن يكون في الآية أسلوب قلب ، فالجنة لا تدنو بنفسها من أحد ، ولكن أهلها من المؤمنين المتقين هم الذين يقرّبون منها ، إرادةً للمبالغة في إظهار النعيم للمؤمنين حتى إن الجنة تقرّب منهم

(١) الدُّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون : ١٠/ ٧٠٤ .

(٢) معاني القرآن للأخفش الأوسط: ٢ / ٥٣٠.

وتدنو لهم حبّاً فيهم وفي أعمالهم الصالحة الذي بذلوه في الدّنيا ليكونوا من أهلها ، والأولى أن يكون الكلام على حقيقته وليس على القلب ، فالجنة هي التي تقترب حقيقةً منهم ، ولا يقدح في هذا أن الجنّة جماد ، والجماد لا يتحرَّك ؛ لأنّ الثابت أن الجمادات في الآخرة يكون منها حركة وكلام وفعل كما ورد في كثيرٍ من نصوص القرآن الكريم والسنّة المطهَّرة ، فأمور الآخرة لها مقياس آخر يختلف عن مقياس الدّنيا .

ولما كان المقصود الأعظم بالخطاب في هذه السورة هم الكفار والمشركون قدّم الوعيد بتسعير الجحيم في الذكر على جانب الوعد بإزلاف الجنة وإدنائها ؛ ترهيباً من المخالفة والغيّ والعناد .

والمتأمِّل لسياق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ يلحظ أنها من الاحتباك وهو أن يترك من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول ، وهو ما يسميه الزركشي (الحذف المقابلي) والذي عرَّفه بقوله: «أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه » [(١)].

يقول البقاعي: «الآية من الاحتباك : ذِكْر السعير أولا دال على ضده في الجنة ثانيا ، وذكر التقريب ثانيا دال على مثله أولا »[(٢)]، وتقدير المعنى : (وإذا الجحيم سُعِّرت وأُبعدت ، وإذا الجنة أُزلفت ونعمت) ، وسرُّ ذلك أنه ذكر ما يرهب من أنكأ ما للكافرين من أهوال العذاب وشِدّته في الطرف الأول وهو (التّسعير) ؛ توفيراً للعناية على ما فيه زيادة ترهيب، وإبرازاً لهول الجحيم المتوعّد به الكافرين، وترك ذِكْر (أبعدت) والمقصود : بعدت بأصحابها أو أُبعدت هي ؛ ليطول وقت مشاهدة أصحابها لها وهي تتسعر مكشوفة من بعيد فذلك أعظم في تحسيرهم وتحزينهم وتقطيع نياط قلوبهم حين يُساقون إليها ليكونوا حطبا ووقودا لها ، وذكر ما يرغب من أيسر ما للمؤمنين من الثّواب في الطرف الثاني وهو (الإزلاف) ، وترك ذِكْر (نعمت) إشعاراً بأنَّ اسمها

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣/ ٢٠٠ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٨/ ٣٣٩.

وحده دالّ على ما فيها من ألوان النّعيم ، وتوفيراً للعناية على تقريبها تكريما وتشريفا لمقامهم عند ربهم ، وإظهاراً لسهولة مدخلها ويُسْر ولوجها وسرعة حصول ذلك دون مشقة أو تعب ، وترغيباً في الدّخول في هذا الدين العظيم ؛ لأن تقريبها هو المُتمنَّى أيّاً كان ما فيها ، فأدَّى المعنى في أبلغ عبارةٍ وأوجزها ، وهذا النّوع من الحذف للمقابل عند السيوطي من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلّ من تنبه له أو نبه عليه من أهل البلاغة [(١)] ، والنفس تنتقل بهذه المقابلة الواردة في سياق الاحتباك من صورة إلى عكسها، صورة مظلمة كالحة مخيفة رهيبة، وصورة مشرقة وضيئة محببة ، وبسبب هذه الموازنة بين الصورتين تجد النفس نفورا من الأولى وترهيبا منها ، وميولاً إلى الثانية وترغيباً فيها ، لأنه كما يقولون : (وبضدها تتميز الأشياء) ، فصورة الجحيم يتلظَّى زادت الجنة – وهي تتقرب للمتقين – إشراقاً ووضوحاً .

والمتأمِّل في أسلوب نظم جمل هذه الآيات التي تُصوِّر حال الكون يوم الفزع الأكبر بكلِّ ما يحمله من انقلابٍ تنخلع له القلوب ، وهولٍ تنبهر منه الأفئدة ، يقف على لطائف بلاغيَّة متنوّعة تدلّ على دقّة النّظم القرآنيّ وجمال تراكيبه ، منها :

• أنها مكوَّنة من جملٍ قصيرةٍ ووحداتٍ متماثلة بطريقة متلاحقةٍ قوية الجرس سريعة الإيقاع ؛ رغبةً في أن تشترك بتصويرها الصّوتي المتمثّل في الأداء القوي السريع عند تلاوتها مع تصوير سرعة حدوث أهوال يوم القيامة ، وتتابع حدوث تلك المشاهد التي تقشعرّ منها الأبدان في وقتٍ قصيرٍ وتمثيله في وجدان المخاطبين حتى يتخيّل للقارئ لها أنّه يرى ما سيحدث أمام عينيه من دقّة الوصف ، فهذا الأداء القوي المفعم بالمعاني الحاسمة يجعل الأنفاس تتصاعد والقلوب تخفق من هول ذلك اليوم وما فيه من حركة عنيفة منفلتة من نظامها الذي كانت تسير فيه منذ أزمانٍ بعيدة ، وذلك يدلّ على قدرة الله العظيمة ، فلا يستطيع عقل الإنسان إدراك ما الذي يجري من تغيُّرٍ في الكون ؟ ، وهو ما عبّر الله عنه صراحةً في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٢/ ٨٣١ .

إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحجّ] .

• كما أنه عند النظر في هذا المشهد نلحظ التناسب والائتلاف بين كل مكوناته وجزئياته فتدمير الكون وتشتيت نظامه يبدأ من الأعلى (الشمس ، والنجوم) إلى الأسفل (الجبال ، العشار ، الوحوش ، البحار) وكلها مخلوقات غير عاقلة ، ثم عقّب بالكائنات العاقلة (النفوس والمؤودة) ، ثم رجع مرَّة أخرى إلى غير العاقل (الصحف التي تُنشر ، والسماء التي تكشط) ليعود المشهد بحركة جانحة إلى كائناته العليا كما بدأ ، وكأنه مشهد تُكوّر فيه الأحداث وينقلب فيه النظام بين أجرام سماوية وأخرى أرضية في سرعة كبيرة ، وقد جاءت جمل الشرط فيها موصولة بالواو لاتفاقها في الخبرية مع التناسب وانتفاء المانع من الوصل.

• أنَّها استفتحت بأداة الشَّرط والتّحقّق ﴿إِذَا﴾ في ثلاثة عشر موطناً ؛ للدّلالة على تحقُّق وقوع خطبٍ جلل تنقلب له نواميس الكون كله وأحوال الناس كلهم ، وأُوثرت في هذا المقام ﴿إِذَا﴾ الشرطية؛ لأن الأصل فيها أن تُستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه، ولمزيدٍ من التَّهويل والتَّخويف أُصطفي الفعلُ الماضي للتعبير عن هذه المشاهد المستقبلية يوم القيامة؛ قصدا للدلالة على تحقُّق وقوع مدلولاتها وتأكيد حصولها ، وتصويراً لها بصورة الواقع ، فكأنَّ تلك الأحوال الرَّهيبة قد وقعت حقَّاً ، فأصحابها عاينوا أهوالها التي لطالما استبعدوا وقوعها وأنكروا حصول تفاصيلها المُفزعة ، وكأنما هي قصة تُقصّ لأخذ العظة منها، وذلك أقوى في مقام الترهيب والتخويف، خصوصاً وأنَّ الحديث صادر ممّن لا شكّ في صدق إخباره ولا مناص من تحقّق وقوع ما يُخبر به ، فهي استعارة تبعية في زمن الفعل لا في حدثه تقوم على تشبيه المستقبل بالماضي في تحقّق الوقوع ، يقول ابن الناظم عن أداة الشرط (**إذا**) : «تأتي للقطع بوقوع

الشرط، وتستعمل في مقام الجزم، ولذلك غلب لفظ الماضي معها على المستقبل؛ لكونه أقرب إلى القطع بالنظر إلى لفظه »[١]، ويمكن أن تكون هذه الأفعال الماضية المُعبَّر بها عن تلك الأحداث المستقبليَّة جاءت على حقيقتها دون مجازٍ فيها عند بعض الباحثين ؛ لأنَّ ما أخبر الله به عن وقوعه مستقبلاً فهو في حكم الواقع أو الذي وقع فعلاً .

• واستهلالُ السّورة وافتتاحها بأسلوب الشرط وبهذا الطُّول والتتابع في الوصف لتلك المشاهد الغريبة مع تكرار الظّرف ﴿إِذَا﴾ افتتاحٌ مهول لمزيد الاعتناء بالتَّهويل، وفيه تشويقٌ إلى ما معرفة ما سيخبر عنه بعد هذه الرّحلة الطويلة والشّآقّة مع أهوال يوم القيامة ، ومن ثمَّ جاء جواب الشَّرط عن ذلك كلِّه والنُّفوس في شوقٍ كبيرٍ وتلهُّفٍ عظيم لمعرفته فقال تعالى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ يقول الطّاهر بن عاشور : «الافتتاحُ بـ ﴿إِذَا﴾ افتتاحٌ مشوق ؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرف يستدعي متعلقاً ، ولأنّه أيضاً شرط يُؤذن بذكر جوابٍ بعده ، فإذا سمعه السّامع ترقّب ما سيأتي بعده فعند ما يسمعه يتمكّن من نفسه كمال تمكّن ، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة ﴿إِذَا﴾، وتعدّد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرَّة ، فإعادةُ كلمة ﴿إِذَا﴾ بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطنابٌ ، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التَّهويل ، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير »[٢].

وقد جاء الشّرط بـ ﴿إِذَا﴾ المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابها فاتحةً لعدَّة سورٍ تتحدّث عن يوم القيامة ومقدِّمات أهواله المستقبليَّة وهي : (الواقعة، والتكوير، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة) كلها مكيَّة النّزول ما عدا (الزلزلة) فهي مدنية باتّفاق العلماء ، وهذه المجموعة الشَّرطيَّة يلحظ المتأمِّل لأساليب التَّعبير فيها أنَّ الشّرط في غالبها قد تردَّد مراراً في السورة الواحدة دون اقتصارٍ على مطلعها ، «والقيمةُ البيانيَّة لهذا المطلع الشَّرطيّ التي من أجلها – والله أعلم – جاء افتتاح هذه السّور بها هي : أنّ الأسلوب

(١) المصباح لابن الناظم: ٥٣ ، وانظر الإيضاح مع البغية : ١ / ١٨٧ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير : ١٢ / ١٤٠ .

الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحَظاً فيه ترتّب المسبب على السّبب ، فإذا ذُكِرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوَّقت النّفس إلى ذكر ما سيكون ، فإذا ذُكِر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التّشويق تمكّن أيما تمكّن ، والذي يزيد من هذه القيمة البيانيَّة لأسلوب الشّرط في القرآن الكريم أمران :

الأول : أنّ القرآن في غالب الفواتح من هذا النّوع لا يكتفي بفعل شرطٍ واحدٍ -كما هو الحال في غيره - بل يقرن به أشباهاً ونظائر يطول تأمّل السّامع فيها وتضاعف من تشوّقه إلى الجواب كلما انتقل من جزءٍ إلى جزءٍ ، فيأتيه الجواب بعد تلهّفٍ وطل ترقّب.

الثاني : أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمورٍ عادية قد لا يهتمّ بها إنسان ، أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى ، أو ربما تنبّأ – سلفاً – بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جميلة ، وليس الحال كذلك في القرآن بل فيه- فوق دقَّة النّظم وجمال التّركيب – غرابة وجزالة »[1].

● ومن لطائف مواقع النظم وبدائعه في هذه الآيات أنَّ الأصل في التعبير بأدوات الشرط أن يليها فعل الشرط مباشرة ، ولكن جاء المسند إليه في هذه الآيات مقدَّماً على خبره الفعليِّ ، وكان ارتفاعه بفعل مقدر يفسره الفعل المذكور بعد المسند إليه ؛ وذلك لتخفيف الكلام وإيجازه واختصاره ؛ لأن ذكرها مرتين لا يحتمله الكلام خصوصاً مع وضوح تقديره لوجود ما يفسره ، ولما في هذا التقديم من مزيد توكيد تلك الأخبار وتقوية الحكم في أذهان السّامعين ، فالمسند في الآيات السابقة جاء فعلاً رافعاً لضميرٍ عائدٍ على المسند إليه ، وسرُّ التقوية : أن فيه تكراراً للإسناد من حيث إن الأفعال : ﴿كُوِّرَتْ﴾، ﴿انكَدَرَتْ﴾، ﴿سُيِّرَتْ﴾، ﴿عُطِّلَتْ﴾، ﴿حُشِرَتْ﴾، ﴿سُجِّرَتْ﴾، ﴿زُوِّجَتْ﴾ ﴿سُئِلَتْ﴾، ﴿نُشِرَتْ﴾، ﴿كُشِطَتْ﴾ ، ﴿سُعِّرَتْ﴾، ﴿أُزْلِفَتْ﴾ أسندت مرَّتين : أسندت أوَّلاً إلى الضمير المستتر فيه العائد إلى المسند إليه المقدَّم ، ثمّ أسندت ثانياً إلى الاسم

(١) خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة : ١ / ٢٠٨.

الظاهر: ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾، ﴿ٱلنُّجُومُ﴾، ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾، ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾، ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾، ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾، ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾، ﴿ٱلصُّحُفُ﴾، ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾، ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾، وبتكرار الإسناد يتقوَّى الحكم، ويتقرَّر في ذهن السامع والمخاطب هذا على إعراب الأسماء الظاهرة عقب أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ نائبا للفاعل، أما إذا أعربت مبتدأ – وهو رأي الكوفيين – فإنَّ في المبتدأ تشويقاً للمخاطبين إلى ذكر الخبر، بسبب تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، وتنبيهه على أنّ حديثاً سيدور بشأنه ليلتفت إليه، فيتحقّق الحكم لديه، ويثبت في ذهنه، وهذا الإعلام والتنبيه بمثابة التكرير في تأكيد الكلام يقول الإمام عبد القاهر: « إنه لا يُؤتى بالاسم معرّىً من العوامل إلا لحديثٍ قد نُوي إسناده إليه، وإذا كان كذلك، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنّك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام أو قلت: خرج أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطّأت له وقدّمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيّأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشدّ لثبوته، وأنفى للشبهة وأمنع للشّكّ، وأدخل في التّحقيق، وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلا مثل إعلامك له بعد التّنبيه عليه والتقدمة له؛ لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ... »[1].

• ومن لطائف نظم هذا المقطع أنَّ جلَّ أفعاله جاءت في موضع الفاصلة لما لم يسمَّ فاعله: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، ﴿سُيِّرَتۡ﴾، ﴿عُطِّلَتۡ﴾، ﴿حُشِرَتۡ﴾، ﴿سُجِّرَتۡ﴾، ﴿زُوِّجَتۡ﴾، ﴿سُئِلَتۡ﴾، ﴿قُتِلَتۡ﴾، ﴿نُشِرَتۡ﴾، ﴿كُشِطَتۡ﴾، ﴿سُعِّرَتۡ﴾، ﴿أُزۡلِفَتۡ﴾، وذلك راجع إلى أن فاعلها الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وهو – وإن لم يُذكر – فهو ظاهرٌ معلوم، مع ما في ذلك من الدلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم أن هذه الأمور العظام لا يقدر عليها إلا الله العظيم، كما أنَّ في هذه الطَّريقة صرفاً للذهن إلى الحدث نفسه، وتركيزاً للانتباه إليه إذ هو مناط

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢، وانظر نهاية الإيجاز: ١٢٣.

الاهتمام ، ولئلا ينشغل بغيره من الأحداث العظام في ذلك اليوم المخيف ، وهذه طريقة القرآن المألوفة مع غالب أفعال أهوال يوم القيامة كما في قوله تعالى:﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ [سورة الانفطار]، بخلاف صورة انكدار النجوم وانصبابها: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ فجاء فعل الانكدار مبنيًّا للمعلوم مراعاةً للتّخفيف ، إذ فعل الانكدار لو جاء مبنياً للمجهول لثقل على اللسان التّلفّظ به وصعب النّطق به هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى فإنه جاء على سبيل المطاوعة ليُشعر بسهولة وقوع هذا الحدث في تلقائية تآمة وطواعيَّة مطلقة ؛ إذ الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير ، والأحداث تقع تلقائياً لا تحتاج إلى أمرٍ أو فاعل .

والأفعال : ﴿سُجِّرَتۡ﴾، ﴿نُشِرَتۡ﴾،﴿سُعِّرَتۡ﴾ قُرِئت مشدَّدة ومخفَّفة[1] فـ «من شدَّد فللتكثير والتّكرير ، ومن خفَّف فعلى الفعل الذي لا يتكرَّر»[2].

ثم جاءت خاتمة هذه الأهوال الشّاقة والرّحلة المخيفة مع أهوال يوم القيامة ببيان الغاية التي ستعلمها النّفوس حين تنتهي منها وتعرف حقيقتها فجاء جواب الشّرط الذي بيَّن أنّه حين تقع هذه الحوادث الرهيبة العجيبة ستُدرك كلّ نفسٍ إنسانيَّة ما قدّمت من عمل خيرٍ أو شرٍّ ، وستعلم ما كان من عملها متقبلاً ، وما كان منه مردوداً عليها ، وستجد ذلك ماثلاً أمامها لا ريب فيه ، فإن كانت من أهل الخير ورأت ما أُعدّ لها من جزاء عظيم تمنّت أنْ لو كانت ازدادت من الطّاعة وفعل الخير ، وإن كانت من أهل الشرِّ والفساد ورأت ما أُعدّ لها من عقاب أليم تمنّت أنْ لم تكن فعلته فقال تعالى : ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ فعُبِّر بالفعل الماضي في جواب الشرط في قوله : ﴿عَلِمَتۡ﴾ والأصل أن يكون مضارعاً إذ هذا الحدث لم يأت زمانه ؛ إشارة إلى تأكُّد تحقُّق وقوع هذا العلم اليقينيّ ، فهو كائنٌ لا محالة ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل

(١) انظر الحجة للفارسي: ٤/ ١٠٠، والحجة لابن زنجلة : ٧٥٠ ، والسبعة في القراءات : ٦٧٣ ، والتيسير في القراءات السبع : ٢٢٠ .

(٢) علل القراءات : ٧٤٩ .

وحصوله وكونه مقطوعا به ، وذلك إنما يكون في المقامات العظيمة كالإخبار عمّا سيقع في يوم القيامة ، وأخباره جل جلاله في تحقُّقها وتيقُّنها – وإن كانت مستقبليَّة – بمنزلة الكائنة الموجودة ، فالله هو عالم الغيب والشهادة الذي يعلم ما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وفي ذلك من الفخامة والدّلالة على علوّ شأن المُخبِر ما لا يخفى على المتدبِّر المُتأمّل ، يقول ابن الأثير في بلاغة إيثار التعبير بالماضي عن الفعل المستقبل والمقام الذي يُستعمل فيه : «وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل .. ففائدته : أن الفعل الماضي إذا أُخبِر به عن الفعل المستقبل الذي لم يُوجد بَعْدُ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضي يُعطي من المعنى أنه قد كان ووُجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها» (١) .

ويقول الشهاب الخفاجي : «إذا كان المُخبِرُ هو العليم الخبير والمُخبَرُ به فعل مستقبل عُبِّر عنه بلفظٍ الماضي يدلّ ذلك حتماً على كمال علمه تعالى لابتنائه على كمال إحاطته بجميع أحوال الوجود وأحوال كلّ موجود، وتفاصيل المبادئ المؤدّية إلى ذلك، وعلى أنّ الحال والاستقبال بالنسبة إليه سيان ، وما سيكون كما قد كان » (٢) .

وأتى فعل جواب الشرط بصيغة العلم ﴿عَلِمَتْ﴾ دون الفعل (عرفت أو أدركت) مثلا ؛ لأن مادة العلم تدل في مفهومها على (الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع)(٣)، فعِلْمُ كل نفسٍ إنسانيَّة بما لها وما عليها يوم القيامة أمرٌ حاصلٌ على جهة الاعتقاد اليقينيّ الجازم كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ [سورة التّكاثر]، والمعلوم به حاضر غير غائب عند وقت العلم به (يوم الحساب)، وشامل لجميع الأعمال دقَّها وجلّها ، سرَّها وعلانيتها ، أوَّلها وآخرها ، دون ظلمٍ أو تفريط ، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ

(١) المثل السائر : ٢/ ١٩٨ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : ٨/ ٥٤ .

(٣) التعريفات، للسيد الشريف الجرجاني : ٢٠٠.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء] ؛ فالمحاسب في ذلك اليوم هو ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية في السموات والأرض ، أحاط علما بكل الظواهر والبواطن ، فالغيب والشهادة والسر والعلن عنده سواء ، وفي ذلك تنبيهٌ لأولي الألباب ، وحثٌّ لأصحاب القلوب الحيَّة للحرص على ما يُوجب خشية الله وتعظيمه وبذل الجهد واستفراغه في العمل الصالح والنَّأْي عن سيِّئ العمل ، قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الكهف] .

وغير خافٍ على المتأمِّل والمتذوِّق أن التنكير في قوله : ﴿نَفْسٌ﴾ له دلالته وإيحاؤه بجلالة الموقف وخطره وشدَّته ، وهو وإن كان في سياق الإثبات ؛ فهو لإرادة العموم الشّمولي[1] ، ليشمل كلّ أحدٍ بارّ أو فاجر ، وكل نفس مؤمنة أو كافرة سترى حقيقة عملها ونوع مصيرها ، فهو من التعبير بالمفرد الواحد ووضعه موضع الجمع ، وهذه استعارة عند البلاغيين حيث استعير المفرد المنكَّر ﴿نَفْسٌ﴾ للدلالة على عكس معناه والضِّدِّ من دلالته أي للدلالة على المبالغة والإفراط في كثرة النفوس ؛ إذ «الأصل في هذا الباب أن استعارة أحد الضدين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس»[2] .

وهو ما يُقرِّره الزمخشري حيث يذهب إلى أن الإفراد في هذه الآية دليل على الإفراط في كثرة النفوس ، وشرح كيفيّة إفادته الكثرة بقوله : «إن قلت : كلّ نفسٍ تعلم ما أحضرت ، كقوله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران : ٣٠] ، لا نفس واحدة ، فما معنى قوله : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ ؟ ، قلت : هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه ، ومنه قوله عزّ وجلّ : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحجر] ، ومعناه : معنى (كم) وأبلغ منه ،

(١) انظر مراقي المجد لآيات السعد : ٢ / ٩٥٥ .

(٢) روح المعاني : ١٤ / ٨ ، و ٣٠ / ٥٧ ، وانظر مفاتيح الغيب : ١٦ / ٢٤١ .

وقول القائل : **قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصفرّاً أَنَامِلُه**[١]

وتقول لبعض العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : ربّ فارسٍ عندي ، أو لا تعدم عندي فارساً ، وعنده المقانب[٢] ، وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ، ولكنه أراد إظهار براءته من التّزيّد ، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده ، فضلاً أن يتزيّد ، فجاء بلفظ التقليل ، ففهم منه معنى الكثرة على الصِّحّة واليقين» [٣] ، فكأنّ المخاطبين وهم أرباب البلاغة وأصحاب الفصاحة إذا سمعوا لفظة الإفراد ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ قالوا : «سنعلم جميعاً» فالأمر لوضوحه وظهوره تُرك تقديره لهم ، ففيه من البلاغة تقرير المخاطبين وإلزامهم بإقامة الحجّة على نفوسهم .

وعمد ابن المنيّر إلى توجيه معنى الاستعارة باستفادة الكثرة والجمع من الشيء المدلول عليه بلفظ الواحد المعنون أصلاً للقلّة فقال : «فمنهم من وجَّهه بما ذكره الزمخشري آنفاً من التّنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجَّهه بأنّ المقصود في ذلك الإيذان بأنّ المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضّدّ ، وذلك شأن كلّ من انتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه ، وقد أفصح أبو الطيب عن ذلك بقوله :

ولجُدْتَ حتى كدت تبخلُ حائلاً للمُنْتَهى ومن السّرور بكاءُ [٤]

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوعٍ من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام ؛ لأنّه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها

---

(١) صدر بيت نُسب للهذلي ، وعجزه : (كأنّ أثوابه مجّت بفرصاد) . انظر : الكتاب:٤/ ٢٢٤ لسيبويه ، ولسان العرب : (مادة : قدد ، أسن)، وتاج العروس : (مادة : قدد) ، وقيل : البيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه : ٧١ .

(٢) المقانب : جمع (مِقنب) وهي جماعة الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل: زهاء ثلاثمائة . انظر الصحاح ولسان العرب: مادة : قنب .

(٣) تفسير الكشاف : ٤/ ٧١٠.

(٤) انظر الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه : ١/ ٢٧٢ .

بالتّقليل استيقظ السّامع بأنّ المراد المبالغة على إحدى الطّريقتين المذكورتين »[1].

بينما يرى أبو السعود العمادي أن التنكير في قوله : ﴿نَفْسٌ﴾ يفيد معنى آخر فقال : «وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أو لبعضٍ منها ؛ للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعا يعرفه كل أحد ولو جيئ بعبارة تدل على خلافه ، وللرمز إلى أن تلك النفوس العالمة بما ذكر مع توفر أفرادها وتكثر أعدادها مما يُسْتَقَلّ بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذي أشير إلى بعض بدائع شؤونه المنبئة عن عظم سلطانه» [2].

ثم ساق أبو السعود كلام الزمخشري الآنف الذكر وناقش رأيه مبيِّناً أن كلامه ينسحب على الأمثلة التي ذكرها دون الآية التي بصددها الكلام ، فقال : «وأما ما قيل من أن هذا من قبيل عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه وتمثيله بقوله تعالى : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [سورة الحجر] ...الخ فمن لوائح النظر الجليل، إلا أن الكلام المعكوس عنه فيما ذكر من أمثلة ممّا يقبل الإفراط والتمادي فيه ، فإنه في الأول : كثيراً ما يودّ ، وفي الثاني : كثيراً ما أترك ، وفي الثالث : كثير من الفرسان ، وكلّ واحد من ذلك قابل للإفراط والمبالغة فيه ؛ لعدم انحصار مراتب الكثرة وقد قصد بعكسه ما ذكر من التمادي في التكثير حسبما فصّل ، أما فيما نحن فيه فالكلام الذي عكس عنه : «علمت كل نفس ما أحضرت» كما صرّح به القائل وليس فيه إمكان التكثير حتى يقصد بعكسه المبالغة والتمادي فيه ، وإنما الذي يمكن فيه من المبالغة ما ذكرناه فتأمّل»[3].

وذهب ابن عطية الأندلسي والشهاب الخفاجي إلى أنَّ الإفراد هنا للتَّحقير، فأمّا ابن عطية الأندلسي فذكر أن دلالة المفرد في هذا الموضع على الجنس والكثرة فـ : «﴿نَفْسٌ﴾

(١) الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال :٤ / ٧١٠ (مطبوع بحاشية تفسير الكشاف).
(٢) تفسير أبي السعود ٩ / ١١٧ .
(٣) تفسير أبي السعود ٩ / ١١٧ .

هنا اسم جنس ، أي علمت النّفوس ، ووقع الإفراد لتنبيه الذهن على حقارة المرء **الواحد** وقلّة دفاعه عن نفسه» [١] ، فالجنس البشريّ كله متّفق ومتّحد على معرفة على هذه الحقيقة الثابتة في ذلك اليوم العظيم ، مع ما يُلمح إليه الإفراد في الآية من مجيئ الإنسان إلى المحشر خائفا وحيدا ليس معه أعوان ولا شفعاء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[سورة مريم] ، عندها ستعلم تلك النّفس الوحيدة المنفردة المقصّرة ما أحضرت من العمل وما كسبت، فيقال للمجرم منهم : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة الأنعام] .

كما أن الشهاب الخفاجي يرى أن سرَّ التعبير عن كثرة النفوس في ذلك المشهد بالوحدة والمفرد ﴿نَفْسٌ﴾ هو «التَّهويل لذلك اليوم ، وإظهارٌ لكبرياء الله وعظمته حتى كأنّ جميع النفوس البشريّة في جنب ما خلقه من الأجرام العِظَام أمور قليلة ونفوس حقيرة» [٢] ، فالتقليلُ من شأن الأنفس بذكرها مفردة﴿ نَفْسٌ﴾ وسيلةٌ إلى تعظيم ما يحدث في ذلك اليوم من أهوال مخيفة حيث تتضاءل هذه النفوس في ذلك المشهد المهيب وكأنها نفس واحدة بل النفوس كلها في نظر الله تعالى سواء كنفسٍ واحدةٍ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة لقمان] .

وسوقي لهذه الآراء كلها للدّلالة على أن هذه الآية شاهد على ناحيةٍ عظيمةٍ من نواحي إعجاز القرآن الكريم البيانيّ وهو أن تجيء الصيغة الواحدة في موضعها حاملة لكلِّ هذه الآراء والمعاني (وهي الدلالة على التّكثير والتّقليل ، والتحقير والتعظيم) ، وكلها مرادة وصحيحة دون تعارضٍ بينها ، خصوصاً في مشاهد ذلك اليوم العصيب ،

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١٩٥٢ .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : ٩ / ٤٢٧ .

فالعدول عن الجمع (نفوس) إلى المفرد ﴿نَفْسٌ﴾ واستعارته لعكس لمعناه «يتجاوب مع الانقلاب الهائل الذي يحدث في جميع ظواهر الكون والانعكاس في حركة الخلق »[1]، على أن دلالة التنكير على التكثير والتقليل والتحقير والتعظيم ليست جمعا بين المتناقضات، وإنما لتعدّد الاعتبارات، فيدلّ التنكير على التكثير باعتبار، ويدل على التقليل باعتبارٍ آخر ، وكلها اعتبارات مقصودة ، وهكذا .

وأسند فعل الحضور إلى الضمير العائد إلى النفس على سبيل المجاز العقليّ ؛ لأنها تحضر بإذن الله تعالى .

وتُرِك ذكر المفعول به للفعل ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ وتقديره: (ما أحضرته من عمل تستحق به دخول الجنة أو النار) ؛ للعلم به من سياق الكلام ، ورغبة في الإيجاز والاختصار ، وحرصاً على تناسب الفاصلة القرآنيَّة والتوافق الإيقاعيّ الجميل بينها بانتهاء فواصل الآيات بالتاء الساكنة ، فقد توافقت فواصل آيات هذا المقطع الأربعة عشر على حرفٍ واحدٍ هو (التاء الساكنة) بما يحمله من همس ، مما كان له توافق إيقاعيّ حسن ، وتوازن صوتي عجيب عند التلاوة تلين له القلوب ، وتلذّ لسماعه الآذان ، وتجعل من القرآن «متلواً لا يُملّ على طول التّلاوة ، ومسموعاً لا تمجه الآذان ، وغضّاً لا يخلق على كثرة الرَّدّ »[2].

وازداد الحُسْن حسناً بالتشابه في بنية وحدات تركيب الآيات وطولها وعدد كلماتها ، فكلها ابتدأت بداية متشابهة بحرف الشرط ﴿إِذَا﴾ وعلى وزنٍ واحدٍ بحيث يأتي الاسم يعقبه الفعل مبنياً لما لم يسمّ فاعله غالباً ، فقال تعالى :

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

(١) الإعجاز البياني، د. محمد الخضري : ٦٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٣ .

«ولعلّ السّرّ في ختم هذه الفواصل بالتاء الساكنة الهامسة الإشارة إلى انقضاء حركة الحياة الأولى في الكون ، والإيذان بسيطرة الخوف والدهشة على النّفوس ، والوجوم الذي يغشى الناس .. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾، وداعي هذا الخوف المسيطر على النفوس ، أوضاع الكون الغريبة التي صار إليها .. وليس في النفوس البشرية استعداد لتحملها في وعيٍ وإدراك .. » (١).

وختامُ آيات هذا المقطع ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ يتشابه مع ختام آيات أهوال يوم القيامة في سورة الانفطار في قوله تعالى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾، فهما من الآيات المتشابهات في صدرها ، المختلفة في آخرها ، والتي وقف عندها علماء المتشابه في النظم القرآنيّ وتعدَّدت آراؤهم حيال توجيه موجب الاختلاف بين الموضعين مع اتحاد المقصود في السّورتين ؛ إذ المعنى في الآيتين واحد (فالذي تحضره كل نفس يوم القيامة هو الذي قدّمت من عملها وأخّرت) ، فقد اتفقوا جميعاً على أنّه قُرِن كلّ شرطٍ بجوابه الذي هو أولى به ، وخُصِّص كل جزاءٍ بما هو أنسب له تبعاً لسياق آيات السورة قبلها ، فمن ذاهبٍ إلى أنّ جواب الشرط في سورة التكوير جاء بعد ذِكْر الجنة والنار حيث قال : ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ ، والمعنى : إن النار والجنة أحضرتا عندها كلّ نفسٍ ستعلم ماذا أحضرت من عملٍ لدخول النار أو الجنة وذلك إذا نوولت الكتاب ورأت الثواب والعقاب ، فسياق الكلام فيها بعد الحاسب ، بخلاف سورة الانفطار فإن سياق الكلام فيها قبل الحساب حيث ختمت أهوال يوم القيامة فيها بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾، والبعثرة تعني قلب التراب لإخراج موتاها ، وجَعْل أسفل القبور أعلاها ، وأعلاها أسفلها ، ولا يخفى أن الأسفل نقيض الأعلى ، ومن ثمّ جاء الجزاء متضمِّناً لفظاً ذا تضادٍّ فقال جل جلاله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ فما قدّمه الإنسان

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٢١١ .

من عملٍ نقيضه كلّ عملٍ أخَّره [1]، وكلّ إنسانٍ سيحاسب نفسه ما قدّمت وماذا أخّرت.

ومن قائلٍ: إنّ جواب الشرط في سورة التكوير متصل بقوله تعالى قبله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾، فأصحاب الصّحف المنشورة قد قرءوها فعلموا ما أحضرت فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾، وفي سورة الانفطار جاء الجواب متصلاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾«والقبور كانت في الدّنيا، فيذكرون ما قدّموا في الدّنيا وما أخّروا في العقبى، فكل خاتمةٍ لائقة بمكانها» [2].

وقيل: إن رعاية المناسبة حتّمت مراعاة ذلك، فإنّ شروط سورة التكوير جاءت أهوال يوم القيامة فيها طويلة كثيرة، فحسُن حينئذٍ الاختصار والإيجاز في جواب الشرط ليُوقف عليه، وأمّا شروط سورة الانفطار فجاءت أهوال يوم القيامة فيها قصيرة قليلة، فحسُن بسط الجواب وتفصيله بذكر التّقديم والتأخير ليتيسّر الوقف عليه [3]، ويرى ابن الزبير الغرناطي أن الأهوال المذكورة في أول سورة التكوير ابتداء من نفخة الصعق وانتهاءً بتسعير الجحيم وإزلاف الجنة وتقريبها لداخليها أهوال مشاهدة جيئ بها منسوقة بالواو المقتضية للجمع حتى كأن تلك المقامات قد عبر عنها بلفظ واحد وتحصّلت حاضرة للتصور الذهني ومن ثمّ «ناسب تقدير الأعمال المترتب عليها الجزاء حاضرة والعبارة عنها بما يحصل ذلك، فقيل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾، وكأن قد قيل: إذا حضرت هذه الأهوال مدركة للعيان حضرت أعمالكم بالتذكير لها ومطالعتها مكتوبة محصورة في الصحف التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا محصاة فيها، يُبين هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النازعات]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الكهف]» [4].

---

(١) انظر: درَّة التنزيل وغرَّة التأويل: ٣/ ١٣٣٨ وما بعدها.

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن: ٢٤٦، وانظر بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٠٤.

(٣) انظر فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن: ٣٢٤.

(٤) ملاك التأويل: ٢/ ١١٣٩.

ولما كانت آية التكوير- وهي المتقدمة في ترتيب نزول القرآن - غير مفصحة بحصر أعمال الخلائق ، جاءت آية الانفطار صريحة باستيفاء طرفي أعمال المكلفين المتقدم والمتأخر منها «واقتضى التناسب تقدّم الإحضار حيث ذُكر ، وتأخير ذِكْر التقديم والتأخير حيث ذُكر ، واتصل كل بما يشاكله ويُلائمه ، ولا يُمكن سواه ؛ إذ التعريف بالإحضار والحصر بذكْر ما قُدِّم وما أُخِّر مقصود معتمد ، إما أن يذكر ذلك على الاستيفاء في كلٍّ من السورتين من غير تفصيل ، وذلك تكرار من غير داعٍ ولا مسوغٍ له ، وإما أن يُذكر مفصلاً على غير ما ورد وذلك غير مناسب ، فلم يبق إلا وروده على أتمّ الملاءمة والمناسبة ، وهذا على رعي ترتيب القرآن على ما تقرّر عليه ، فعرفت الآيتان بإحصاء الأعمال المحضرة ما تقدّم منها وما تأخّر أي ما عمله المكلف في أول عمره وبدء تكليفه وفي آخر عمره وختم عمله كما أخبر تعالى من قول المجرمين: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فقدّم ذكر إحضارها أوّلاً ليناسب به ما تقدّم، وأخّر ذِكْر إحصائها ليعلم بالحصر والاستيفاء ، وجاء كل على ما يناسب » (١).

ويمكن الأخذ بتلك التَّوجيهات البلاغيَّة المتنوّعة كلها ؛ إذ الأسرار البيانيّة للقرآن الكريم لا تنفد ، وعجائبه لا تنقضي ، مع ما في ذلك من تنويع أساليب الخطاب ، والتفنّن في استعمال العبارات ، والبراعة في عرض التراكيب ؛ لدفع ثقل تكرار الألفاظ، ولتزيد من هول الموقف وفظاعة الخطب باستحضار شِدّة ذلك المقام العظيم .

وبعد ذِكْر مشاهد يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوالٍ عجيبة مفزعة ؛ تذكيراً للإنسان بضرورة الاستعداد للحساب والجزاء ، تكون النّفوس مهيّأةً لامتثال الأوامر ، متطلِّعةً للإرشاد والتّوجيه المنجي من كلِّ هذه الأهوال والصِّعاب ، ولذا جاءت النُّقلة بالحديث عن إثبات نبوة محمدٍ ﷺ ، وصِدْق ما جاء به من القرآن العظيم الذي أخبرهم عن البعث والحساب ، ووجوب الإيمان به.

(١) ملاك التأويل : ٢ / ١١٤٠ .

المبحث الثاني

حقيقة الوحي ، والتّنويه بصفات الرسول الكريم والرسول المُرْسَل إليه

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

قسمٌ فخمٌ عظيمٌ جاء في استهلال هذا المقطع من السورة تمهيداً للنّفوس البشريَّة للحديث عن حقيقة إيمانيَّةٍ كبرى تتعلّق بالقرآن الكريم وكونه وحياً من عند الله تعالى نزل به أكرم ملك على أعظم رسول ، ولأن فاء التفريع بمثابة وصلة أو أداة انتقال بين أمرين بينهما ارتباط ما فقد اقترن القسم هنا بها ؛ «لتفريع القسم وجوابه على الكلام السابق ، للإشارة إلى أنّ ما تقدّم من الكلام هو بمنزلة التمهيد لما بعد الفاء ، فإنّ الكلام السابق أفاد تحقيق وقوع البعث والجزاء ، وهم قد أنكروه وكذّبوا القرآن الذي أنذرهم به ، فلمّا قضى حقّ الإنذار به وذكر أشراطه فرّع عنه تصديق القرآن الذي أنذرهم به وأنه موحى به من عند الله ، فالتفريع هنا تفريع معنى وتفريع ذكْرٍ معا» [(١)].

والقسمُ من أهمِّ عناصر التأكيد والتقوية ، فقد جاء في إحدى وثمانين آية من القرآن الكريم ، منها ثلاث وستون آية مكيَّة ، وثماني عشرة آية مدنيَّة ، وهو في مجمله يهدف لتحقيق غرضين ؛ هما :

الغرض الأوّل : تأكيد الخبر (المقسم عليه) وتقريره أبلغ التقرير في نفوس المخاطبين وإزالة الشّكِّ من نفوسهم ومواجهة إنكارهم.

والغرض الثاني : تنبيه المخاطبين إلى شرف المقسم به ، وتعريفهم بماله من ضروب النفع والفائدة .

---

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ١٥٢ .

وقد جاءت صيغته هنا بقوله : ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾[1] ، وهي من التَّراكيب المشهورة عند العرب في القسم يُراد بها تأكيد الخبر والدّلالة على تحقّق مضمونه ، وقد تكرَّرت هذه العبارة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ في ثمانية مواضع من القرآن الكريم كلها جاء فعل القسم الصريح ﴿أُقۡسِمُ﴾ مسنداً للحقِّ جلَّ جلاله مسبوقاً بـ ﴿لَآ﴾ النافية ، فجاءت في ابتداء سورتين هما في قوله جلَّ جلاله : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [سورة القيامة] ، وفي قوله جلَّ جلاله : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [سورة البلد] ، كما جاءت في قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾[سورة الواقعة] ، وفي قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩﴾ [سورة الحآقة] ، وفي قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [سورة المعارج] ، وفي قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [سورة التكوير] .

والعلماء مختلفون في توجيه هذه الظاهرة الأسلوبيّة من صيغ القسم في البيان القرآنيّ :

فقيل : إن ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ معناها : ﴿أُقۡسِمُ﴾ زيدت﴿لَآ﴾ للتأكيد[2] ، وبعضهم يعبِّر عوضاً عن الزّيادة بأنها صلة لتأكيد القسم ، دون أن يُتبعوا ذلك ببيان وجه تأكيد القسم بنقيضه وهو النفي بـ﴿لَآ﴾ ، وزيادتها جارية في كلام العرب كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [سورة الأعراف] يعني : (أن تسجد) بدلالة قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص] .

وبعضهم نظر للمقسم عليه في هذا الأسلوب فيرى أن العرب اعتادت أن تأتي

---

(١) مادة (القسم) في البيان القرآني تأتي في الدلالة على الأيمان الصادقة – حقيقة أو وهما – لذا لم يسند الفعل (أقسم) في القرآن الكريم إلى ضمير المنافقين، بخلاف مادة (الحلف) فتستعمل في الحنث في اليمين والأيمان الكاذبة ، ولذا جاء الفعل (حلف) مسنداً غالباً إلى ضمير المنافقين في البيان القرآني للدلالة على كذبهم وحنثهم . انظر : الإعجاز البياني للقرآن : ٢٢١ – ٢٢٤ ، د . عائشة عبد الرحمن ، ومن خصائص الأسلوب القرآني أن مادة (حلف) لم ترد إلا في الآيات المدنية فقط إلا في قوله تعالى في سورة القلم : ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ فهي مكية ، وأما مادة (القسم) فلم ترد إلا في الآيات المكية .

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج : ٥ / ٢٩١ .

بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمراً ظاهراً لا يحتاج إلى تأكيد ، وكأنَّ الخبر في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم ، وكأنّه يقول : أنا لا أقسم بكذا وكذا على إثبات ما أذكره ولا على وجوده ، فهو واضحٌ جليٌّ غير محتاجٍ إلى قسمٍ ويمين ؛ لوضوح أمر المقسم عليه وثبوته ، ثم شاع هذا الاستعمال فصار مراداً لتأكيد الخبر فساوى القسم ، وعليه يكون النّفي بـ (لا) حقيقي [(١)].

وهو ما أكَّده الدكتور المطعني بقوله : «لماذا نُفي القسم بحرف النفي (لا) والحقيقة المراد إثباتها (وهي كون القرآن الكريم كتاب الله ووحيٌ أوحاه) جديرةٌ بأن يُقسم عليها ؛ لأنّ كثيراً من المعاندين حاولوا التّشكيك فيها ؟ لقد حاول كثيرٌ من العلماء أن يُخرِّجوا العبارة على إثبات القسم ، وليس من ضيرٍ أن نُبقي القسم منفيّاً على ظاهره ، وسرُّه البيانيّ حينئذٍ أن الحقيقة ظاهرةٌ لا تحتاج إلى أن يُقسَم على إثباتها ، إجراء إنكار المعاندين كلا إنكار ؛ لأنّه لم يُصادف موضعاً يتوجّه إليه على وجهٍ مقبول ، ويكون فائدة ذكر القسم منفياً للإشارة إلى هذه النّكتة توصُّلاً لذكر المقسَم به في الظاهر باعتبار أنها آيات ناطقات» [(٢)].

وقيل : إنّ ﴿لَآ﴾ حرف مستقل عن الفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ ، وقع جواباً لكلام مقدّرٍ يدل عليه ما بعده من قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ تفنيداً لأقوال قريش في تكذيبهم بالقرآن الكريم وبنبوَّة محمدٍ ﷺ وقولهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك [(٣)].

والمقسَمُ به هنا بعضٌ من مظاهر بديع آياته الكونيَّة الدَّالّة على عظيم قدرته وكبير صُنْعه وجميل خلقه ، وهذه الآيات الكونيَّة ممّا يعرفها المخاطبون ويألفونها ويُشاهدونها حسَّاً كلّ يوم :

---

(١) انظر التفسير البياني للقرآن الكريم : ١ / ١٦٦ ، وتفسير جزء عم : ٢٩ للشيخ محمد عبده .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٢١٣ .

(٣) انظر معاني القرآن : ٣ / ٢٠٧ ، والمحرّر الوجيز : ١٩٥٢ .

فقد أقسم الله بالنّجوم والكواكب في أحوالها الثلاثة : حال طلوعها وظهورها ، وحال جريانها وسيرها في فلكها سيراً حثيثاً ، وحال اختفائها وغروبها ، فهي تسير بنظام دقيق لا يتخلّف ، وهذا هو قول (عامَّة المفسرين ، وهو الصَّواب) [(١)] ، فأدمج في القسم هنا أوصاف الأشياء المقسم بها ؛ للدلالة على تمام قدرة الله تعالى ، فذكر **(الخُنَّس)** [(٢)] وهي التي تخنس عن العيون نهاراً وتختفي تحت ضوء الشمس ولا تُرى ثم ترجع إلى مطالعها ، و**(الجوارِ الكُنَّس)** [(٣)] وهي التي تسير وتجري في أفلاكها ثم تختفي وقت غروبها كما تكتنس الوحوش في كناسها ، وقيل : هي التي تظهر للبصر في أفلاكها وتطلع في أماكنها ليلاً كما تظهر الظِّباء في كنسها والوحوش في بيوتها التي تتخذها من أغصان الشّجر ، وجاء الجمع **(الخُنَّس ، الكُنَّس)** على وزن (فُعَّل) بضم الفاء وتشديد العين ؛ دلالة على تكثير القيام بالفعل ، فهي تختفي وتظهر كثيرا لا مرة واحدة ، وأقسم – سبحانه – بها ؛ لبيان عظمتها وارتفاع رتبتها ، ولما في حركاتها من إحكام صنع الله وبديع نظامه في هذا الكون الفسيح ، فهي تختفي طوراً وتظهر طوراً آخر منذ آلاف السنين ، وذلك من الدّلائل العظيمة على قدرة مصرِّفها ومجريها ، وقد أدَّى الجناس دوره في إبراز جوانب هذا المشهد ، فنسمعه وهو يقرع الآذان بصوته الهامس بين ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ، ٱلۡكُنَّسِ﴾ وهو جناس لاحق كان له وَقْعه النّغميّ الملحوظ ، فكان من أسباب تلاحم الآيتين وترابطهما لما بين طرفيه من المماثلة الشّكليَّة ، مع ما فيه من تشويقٍ للنَّفس وتنشيطٍ للذّهن للوقوف على المراد من اللفظتين المتشابهتين ، وهذا أدعى إلى تثبيته وتأكيده في الذهن بعد معرفته ، وازداد التَّجنيس هنا روعة وجمالا

---

(١) التبيان في أيمان القرآن : ١٨٤ ، وانظر المحرر الوجيز : ١٩٥٣ ، وزاد المسير : ٨/ ١٩٢ .

(٢) الخُنّس : جمع خانس وهو المنقبض المستخفي ، يقال : خنس فلانٌ بين القوم إذا انقبض واختفى ، وهي هنا النجوم تسير في المنازل والبروج ثم تختفي . انظر تفسير غريب القرآن : ٥١٧ لابن قتيبة ، وتفسير المراغي : ٣٠/ ٥٧

(٣) الكُنّس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظّبي إذا دخل كِنَاسه وهو بيته الذي يتّخذه من أغصان الشّجر واستتر به . انظر تفسير المراغي : ٣٠/ ٥٧ .

بالتزام النون فيهما قبل السين ، وهو فنٌّ سماه ابن أبي الإصبع (الالتزام) ، ووصفه في هاتين الآيتين بأنَّه « تُعجز الفصحاء عنه أشدّ تعجيز ؛ لمجيئها سهلة منسجمةً كما ترى ، فسبحان المتكلّم بهذا الكلام » [(١)].

ويرى الشريف الرضي أنّ في صفة النجوم هنا : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾، استعارة وتوضيح ذلك أنّ « الخُنَّس المراد بها التي تخنِسُ نهاراً ، وتطلُع ليلاً ، والخنَّس جمع خانس وهو الذي يقبع ويستسرّ ، ويخفى ويستتر ، وأمَّا الكنَّسُ فجمعُ كانس ، وهو أيضاً المتواري المستخفي ، مشبَّهاً بانضمام الوحشيَّة إلى كناسها ، وهو الموضع الذي تأوي إليه من ظلال شجر وأَلْفاف خمر ، وجمعه كنَّس ، فشبَّه سبحانه انقباع النّجوم في بروجها بتواري الوحوش في كُنُسها» [(٢)].

و«لمناسبة جريان الكواكب في الليل»[(٣)] عقَّب على القسم بالنّجوم بالإقسام بالليل، وقيَّده بوقت (العَسْعَسَة) فقال تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ ، وعسعسةُ الليل اختُلِف في معناها : فأكثر المفسرين على أنها وقت إدبار الليل وانتهاء ظلمته وذهابه [(٤)] ، وذلك نظير إقسامه – سبحانه – بإدبار الليل وإسفار الصباح في سورة المدثر في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾، وفي إدباره زوال الغُمَّة التي تغمر نفوس الأحياء بانسدال الظّلمة وانحسارها .

وقيل: أقسم الله بالليل حال إقباله ومجيء ظلامه فيسكن فيه كل متحرِّك[(٥)]، وإقبالُ الليل مقابلٌ لإقبال النّهار المقسم به بعده في قوله تعالى :﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾، وهما نظير إقسامه بغشيان الليل وتجلِّي النَّهار في سورة الليل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١

(١) بديع القرآن : ٢٢٧ – ٢٢٩ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٦٠ ، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : ٩ / ٤٢٨ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٢/ ١٥٤ .

(٤) انظر : جامع البيان : ١٢/ ٤٦٩ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٢/ ١١١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٤٨٠ ، والمحرر الوجيز: ١٩٥٣ ، وحكى الفرَّاء إجماع المفسرين على ذلك . انظر معاني القرآن: ٣/ ٢٤٢

(٥) انظر : معالم التنزيل : ٨/ ٣٤٩ ، ورجّحه السمعاني في تفسيره : ٦/ ١٦٩ .

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، فغشيانُ الليل نظير عَسْعَسَته ، وتجلِّي النّهار نظير تنفّس الصّبح .

والأكثرون على القول الأوَّل وهو ما رجَّحه ابن قيّم الجوزيَّة بقوله : «والأحسنُ أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النَّهار عقيبه من غير فصْل ، فهذا أعظم في الدِّلالة والعبرة ، بخلاف إقبال الليل وإقبال النّهار ، فإنّه لم يُعرف القسم في القرآن بهما ، ولأنَّ بينهما زمنٌ طويلٌ ، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فَصْل أبلغ ، فذكر – سبحانه – حالة ضعف هذا وإدباره ، وحالة قوَّة هذا وتنفّسه وإقباله ؛ يطردُ ظلمةَ الليل بتنفّسِهِ ، فكلمَّا تنفّسَ هرب الليل وأدبر بين يديه ، **وهذا هو القول**» [(١)].

ومردّ اختلاف العلماء في تفسير ﴿عَسْعَسَ﴾ أنها من الأضداد تدل على الإقبال والإدبار عند العرب[(٢)]، وإذا كان بعض اللغويين يذهب إلى أن الأضداد تؤدي إلى اللبس ؛ لأننا لا نعلم المراد به على وجه اليقين لاحتمالها معنيين متضادين فإن ما ورد منه في القرآن لا يؤدي إلى اللبس والخفاء ، بل هو في غاية الفصاحة والبيان فإن من دقائق التعبير القرآني اصطفاء الكلمة الملائمة للسياق باعتبار أنه يصح حمل الكلمة هنا على كلا المعنيين فيكون القسم بالليل في حال إقباله وإدباره معاً ، وفي ذلك قمَّة الوفاء بالمعنى مع الإيجاز في اللفظ ، وهو ما نسبه ابن عاشور إلى المبرد ، ثم قال : «وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما ؛ لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء ثم يعقب الضياء الظلام ، وهذا **إيجاز**» [(٣)].

والمتذوِّق للسّلاسة والسّهولة في قوله : ﴿عَسْعَسَ﴾ يجدها ترسم باقتدار الأجواء الليلية الهادئة ؛ لأن صوت تكرارُ السين في﴿عَسْعَسَ ﴾ يُناسب أجواء الليل الهادئة بما يحمله هذا الحرف من همسٍ يختفي معه كل ظاهر ، ويسكن فيه كل متحرك ، ممّا يُرجِّح

(١) التبيان في أيمان القرآن : ١٩١ .

(٢) انظر: الأضداد لابن الأنباري:٣٢ ، وثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي ، والسجستاني ، وابن السكيت: ٧ ، ٩٧ ، ١٦٧ ط بيروت ، وتهذيب اللغة : (عسعس)، ولسان العرب : (عسس) .

(٣) التحرير والتنوير : ١٢/ ١٥٤ .

معه أن يكون المعنى المراد إدبار الليل ؛ إذ عسعسة الليل وهدوؤه أشدّ ما تكون في آخره وقت السَّحَر حين يسكن كلّ حيٍّ .

وفي التَّعبير عن الليل بالإدبار استعارة مكنية ؛ إذ الليل لا يدبر ويقبل ، وإنما الإدبار والإقبال من خصائص الأحياء لا الجماد ، فهو أسلوب مجازي يقوم على تشخيص الليل وتصويره بصورة الحي القادر على الإدبار والإقبال ، ثم حذف المشبه به ، وأخذ منه شيئاً من لوازمه وخصائصه وهو لفظ ﴿عَسْعَسَ﴾ ، ويمكن أن يحمل على المجاز العقلي بنسبة فعل الإدبار (العسعسة) إلى الليل لعلاقة الزمانية ، وإسناد الفعل إلى المعاني كثير في كلام العرب نحو قولهم : طاف الخيال ، ولكن بتأمّل السياق وتدبّره نجد أن حمله على الاستعارة المكنية أولى وأقوى ، فقد جُعل الليل والنّهار كلاهما حي يقبل ويدبر ، والصبح يتنفّس ، هذا هو المراد ، وليس المراد المبالغة في الحدث .

وقد تعدَّد قسم الله بالليل في مواطن متعدِّدة وبأحوال متنوِّعة في كتابه الكريم ؛ دلالةً منه سبحانه وتعالى على عظمة هذا المُقسَم به ، إذ «إقسامه ببعض مخلوقاته دليلٌ على أنها من عظيم آياته »[1]، وتنبيهاً إلى أهمِّيّة مكانة هذا الزَّمن ، وإشعاراً برفعة منزلة هذا الوقت عنده سبحانه وتعالى ، فهو من أجلِّ نعم الله على عباده وعلى خلقه كلهم ، يسكنون في أوَّله لراحة أبدانهم من نصب وتعب الكدِّ وطلب المعاش في النَّهار ، وفي آخره أشرف الأوقات وهو وقت النُّزول الإلهي العظيم فترتاح أرواحهم وتسكن قلوبهم .

ويعتبر الليلُ من أكثر ما أقسم الله به من مخلوقاته كلها حيث جاء القسم به في سبعة مواضع من القرآن الكريم ، وهي :

١. قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [سورة المدثر].
٢. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [سورة التكوير].
٣. قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [سورة الانشقاق].

(١) التبيان في أيمان القرآن : ٥ .

٤. قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ [سورة الفجر].

٥. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [سورة الشمس].

٦. قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [سورة الليل].

٧. قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [سورة الضحى].

والمتأمِّل في الاستعمال القرآني للإقسام بالليل يجد جمله جاءت متَّفقة النظم في الصِّدر بالإقسام باسم (**الليل**) دون بقية أسماء هذا الوقت كـ (المساء أو العشي مثلا) ، وبحرف القسم (الواو) دون بقية حروف القسم كـ (التاء أو الباء مثلا) ، وقُيِّد الإقسام بالليل بقيود متنوعة زاخرة المعاني تتناسب مع مقاصد السور التي وردت فيها وهي على التّرتيب : ﴿إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ ،﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ ، ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ ،﴿إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ ، ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ، ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ ، أو بالعطف ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ ، والحكمة – والله أعلم – في هذا التَّنوّع في القيود ليشمل أحوال الليل كلّها : حالة إقباله في أول غشيانه الكون حيث يأوي كل حيوانٍ إلى مأواه ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة إدباره وذهابه ، كما أنَّ في ذلك إظهاراً للمقدرة البيانيَّة على التَّصرّف في الكلام ، وبيان براعة النَّظم القرآنيِّ في التَّفنُّن بإتيان القسم بشيء واحدٍ على ضروبٍ متنوعة وبقيودٍ مختلفة ؛ ليُعلم اللهُ العربَ عجزهم عن جميع طرق وأساليب ذلك ، وليلفت عقولهم لآيةٍ من أعظم آياته الدَّالة عليه سبحانه ، مع ملاحظة أن النَّسق القرآنيّ البديع لكلِّ آيةٍ من هذه الآيات جاء متوافقاً مع فواصل كلِّ سورةٍ منها للمحافظة على بقاء النَّغم الصّوتي للفواصل واستمرار جرسه ووَقْعه ، ومتلائماً في الوقت نفسه مع المقاطع القصيرة الحاسمة القاطعة المتتابعة التي تتميَّز بها كلّ سورة من تلك السّور ، مع ما فيها من إيحاءات بلاغية متنوعة أسبغت الحياة على الليل وجعلته يبدو أمامنا مخلوقا حيا عاقلاً يدبر ويقبل ويسري ويجمع في الكون كله على طريقة المجاز العقلي لعلاقة الزمانية أو الاستعارة المكنية ، ففيها تخييل بديع أخرج الليل من حيِّز الزمانية إلى حيِّز الفاعليّة المؤثرة .

و«لأن تعاقب الليل والنَّهار من أجلِّ مظاهر الحكمة الإلهيَّة في هذا العالم » [1]، وأجمل مظاهر بديع هذا الكون الذي خلقه الله تعالى أتبع إقسامه بالليل بالإقسام بالصبح إذا ظهر نوره وانشقَّ ضوؤه وانتشر وأقبل بروح ونسيم باثَّاً الحياة في الكون كلّه ، فقال تعالى : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ ، وفي ذلك تمام البشرى للأنفس بحياةٍ جديدةٍ في نهارٍ جديدٍ . وفي تعبير المولى جلَّ جلاله عن إقبال الصبح بروح ونسيم بقوله : ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ استعارةٌ جميلةٌ موحيةٌ بتشخيص الصبح إنساناً يتنفَّس ويشعر بالاطمئنان بعدما أخذ قسطا من الهواء النقي الذي يجدد به الحياة ، لأن إخراج النَّفَس من جوف الإنسان وباطنه يعقبه ارتياح وطمأنينة بال ، وهنا صُوِّر أول النَّهار وكأنَّه شخص حيٌّ محزون مكروب من وحشة الليل وثقل ضغطه عليه ، فإذا ذهب الليل وزالت كربته تنفَّس النهار تنفس الهدوء والراحة ، وهذا ما يجعل الصورة مفعمة بالأنس والإشراق والحياة ، فالصُّبح من مخلوقات الله الصامتة الجامدة التي لا يُتصوَّر منها التَّنفُّس وإخراج الهواء ، لكنَّه شُبِّه بمن يكون منه التَّنفُّس تجسيماً وتشخيصاً له في صورة الإنسان الحيِّ ، و« تأمَّل ما تُوحي به كلمة ﴿تَنَفَّسَ﴾ من تصوير هذه اليقظة الشَّاملة للكون بعد هدأة الليل ، فكأنَّما كانت الطَّبيعة هاجعة هادئة لا تحسّ فيها حركة ولا حياة وكأنَّما الأنفاس قد خفت حتى لا يكاد يحسّ بها ولا يشعر ، فلمّا أقبل الصبح صحا الكون ، ودبّت الحياة في أرجائه » [2].

ويمكن حملها على الاستعارة التصريحيّة باستعارة خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلا قليلا بجامع التتابع على طريق التدريج ، ثم اشتق من التّنفّس بمعنى خروج النفس ﴿تَنَفَّسَ﴾ بمعنى خروج النور من المشرق عند انفلاق الصبح ، ويكون فيها مجاز عقلي علاقته الزمانية تفنّناً في البيان والتعبير ، بإسناد

(١) التحرير والتنوير : ١٢/ ١٥٤ .

(٢) قبسٌ من البيان القرآني : ٤٨ ، د. محمد حسن شرشر.

فعل التنفس إلى الصّبح ، وفي ذلك بيان لأهمية هذا الزمن في احتوائه لهذا الحدث ، وإشارة إلى أنه عنصر هام فيه ، يقول الشهاب الخفاجي : «وفي كيفيّة التّجوّز قولان : أحدهما : أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز ، وقيل : تنفس الصبح ، والثاني : أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك ، واجتمع الحزن في قلبه ، فإذا تنفس وجد راحة ، فها هنا لما طلع الصبح كأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس ، فعلى الأول فيه استعارة مصرحة بجعل ما يهب معه من النسيم نفسا للطفه وللاستراحة به ، وأسند إلى الصبح مجازا لمقارنته له ، ففيه استعارة مصرَّحة ، وتجوّز في الإسناد ، ولو جعل مكنيّة وتخييلية حسن بأن يشبه الصبح بماشٍ وآتٍ من مسافةٍ بعيدةٍ ، ويثبت له التّنفس المراد به هبوب نسيمه مجازاً على طريق التخييل .. »[(١)].

وقد حظي هذا المجاز بإعجاب البلاغيين وتذوُّقهم له بالشَّرح والتَّحليل ، من جهة أنّه يفضل اللفظة الحقيقيَّة بما يحمله من معان قوية ، وما يصوِّره من انفعالاتٍ وأحاسيس ، وما يكتنفه من إيحاءاتٍ لطيفةٍ منحته حيويَّةً وقوَّة لا تجدها في اللفظ الحقيقيّ وهو (الانتشار) فإن لفظة (الانتشار) لا تبلغ مبلغ (التنفس) التي استعملها القرآن ، فالتنفس يحمل في دلالته معنى الترويح والطمأنينة والهدوء خصوصاً أن إضاءة الصُّبح تكون بعد كربات الليل ، يقول أبو الحسن الرماني مشيرا للأثر النفسي الناشئ من التصوير بالاستعارة : «وقال تعالى : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ وتنفَّس ها هنا مستعار ، وحقيقتُه إذا بدأ انتشاره ، وتنفَّس أبلغ منه ، ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنَّه في التَّنفّس أبلغ ؛ لما فيه من التَّرويح عن النفس » [(٢)].

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي : ٩ / ٤٢٩.

(٢) النُّكت في إعجاز القرآن : ٩٠ ، وانظر كتاب الصِّناعتين : ٢٨٠ ، وإعجاز القرآن : ٢٦٧ ، للباقلاني ، وسرُّ الفصاحة : ١١١، الإكسير في علم التفسير : ١٠٠ للطوفي ، ومقدِّمة تفسير ابن النَّقيب : ٩٨ الذي عدَّها من نفيس استعارة المحسوس للمحسوس حيث استعار التَّنفّس للظهور ، ووجه جماله أنه استعار للمشاهد =

وممن عالج بيان الآية الشَّريفُ الرَّضي مبيِّناً أنَّها من الاستعارات الجميلة ، ومُورداً احتمالاً آخر يُمكن أن تُحمل الكلمة فيه على الحقيقة ، فقال : «وهذه من الاستعارات العجيبة ، والتَّنفّس ههنا عبارةٌ عن خروج ضوء الصُّبح من عموم غسق الليل ، فكأنَّه متنفِّس من كَرْب ، أو متروِّح من همٍّ ، ومن ذلك قولهم : قد نُفِّس عن فلانٍ الخناق ، أي انجلى كربه ، وانفسح قلبه ، وقد يجوز أن يكون معنى﴿ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي إذا انشق وانصدع ، من قولهم : تنفَّس الإناء إذا انشقّ ، وتنفست القوس إذا انصدعت ، وهذا التَّأويل يُخرج اللفظ من باب الاستعارة »[1]، ويطرح ابن عاشور تحليلاً يرى فيه أنّه يُمكن إجراء الاستعارة على أنّها مكنيَّة أو تصريحيَّة ، فيقول : «والتَّنفّس حقيقته : خروج النّفَس من الحيوان ، استعير لظهور الضّياء مع بقايا الظّلام ، على تشبيه خروج الضّياء بخروج النّفَسَ على طريقة الاستعارة المصرّحة ، أو لأنّه إذا بدا الصّباح أقبل معه نسيم ، فجعل ذلك كالتّنفس له على طريقة المكنيَّة بتشبيه الصّبح بذي نفس مع تشبيه النّسيم بالأنفاس»[2].

وإذا كان القرآن الكريم جاء الإقسام فيه هنا بالصبح إذا تنفسَّ فإنَّه في سورة المدَّثر أقسم به إذا أسفر فقال تعالى : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾﴾وكلاهما قسمٌ من الله بالصبح جاء القيد في ختامه مراعيا لتوافق الفاصلة القرآنية في كل منهما (السين في أربع آيات من سورة التكوير، والراء في سورة المدثر) ، والجمالُ فيه ما يحمله ذلك من حلاوة في الجرس ونغمة عذبة في الإيقاع تسهم في توضيح المعنى وتجليته بأبلغ صورةٍ ، وضاعف الحسن في هذا القيد أن كليهما جاء استعارة مكنيَّة ، الأولى تقدَّمت الإشارة إليها ، والأخرى يقول عنها الشّريف الرّضي : «وهذه الاستعارة ، والمرادُ بها انكشاف الصبح بعد استتاره ، ووضوحه بعد التباسه ، تشبيهاً بالرّجل المُسْفِر الذي قد حَطَّ لثامه ،

=القريب (وهو انتشار الصبح) ما هو أقرب وهو (عملية التّنفّس).

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٢ / ١٥٤ .

فظهرت مجالي وجهه ، ومعالم صورته » [١].

وبين (**عسعسة الليل وتنفُّس النهار**) تناغمٌ بديع ومقابلةٌ جميلة ، فإقبال ظلام الليل حيث يسكن كل متحرك ويختفي معه كل ظاهر يقابله انتشار ضوء النهار وظهور نوره ليُبدِّد ذلك الظّلام فيتحرك كل ساكن ويظهر كل مختفٍ ، وكلتا المفردتين قد وضعت في مكانها الصحيح الذي هو أحقّ بها وهي أحقّ به ، فقد أوحت كل منهما بجرسها عن معناها قبل أن يوحي مدلولها اللغوي عليه ، يقول الدكتور محمد سعيد البوطي : « اقرأ قوله تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصورة على اختلافها ، ألا تشم رائحة المعنى قوية من كل من هاتين الكلمتين ﴿عَسۡعَسَ ، تَنَفَّسَ﴾ ؟ ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوسا مجسما دون حاجة للرجوع إلى المعاجم ؟ ، وهل تستطيع أن تصور إقبال ظلام الليل وتمدده في الآفاق بكلمة أدل من ﴿عَسۡعَسَ﴾، أو هل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من (تنفس) ؟ ، بل هل تجد في معاجم اللغة أدق من هاتين الكلمتين في التَّعبير عن هذين المعنيين ؟»[٢].

ولمّا كانت عسعسة الليل وتنفّس الصباح مشهداً من مشاهد الطبيعة المتكرّرة دون توقّف أو انقطاع ، جاريةً على سنن عام لا يتخلّف ، كانت أداته الشرطيّة المناسبة للمقام ﴿إِذَا﴾ المؤذنة بكثرة تحقّق وقوع ما بعدها والجزم بذلك .

ثم ورد الجواب المؤكد بهذا القسم (المحلوف عليه) بإثبات أن القرآن المجيد الذي جاء به النبي ﷺ هو وحي أنزله سبحانه وتعالى بوساطة جبريل عليه السلام فقال سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ وما تلاه من آيات .

والعدول إلى الإضمار من غير سبق ذِكْرٍ للقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ﴾

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٥٤ .

(٢) من روائع القرآن : ١٤٢ .

للإشعار بنباهة شأنه وعظم منزلته ، وكونه مركوزاً في العقول ، حاضراً في الأذهان ، كما أنَّه «معلومٌ من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث ، فإنّه ممّا أخبرهم به القرآن وكذَّبوا بالقرآن لأجل ذلك »[1]، وهو من التفسير بعد الإبهام فإيراد ضمير الشأن وهو الهاء من ﴿إِنَّهُۥ﴾ مفسراً بما بعده﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ ممَّا يزيد الحقائق رسوخاً لمجيئه على تشوُّفٍ وتطلُّعٍ.

ويرى بعضهم أنه لا حاجة لإعادة هذا الضمير على القرآن بجملته ؛ لأنه لم يتقدّم له ذكر ، وإنما الضمير عائد على الأخبار المتقدّمة في أول السورة من تكوير الشمس وانكدار النّجوم ..الخ ويفهم منه القرآن الكريم ضمناً ، وكأنه يقول : إذا وقعت هذه الأهوال العِظَام كلها كان ما ذكرت وذلك خبر لا ريبة فيه فإني أقسم .. الخ ، بدلالة اقتران ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بالفاء حيث قال : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ ، والفاء تدلّ على تعلّق ما بعدها بما قبلها [2].

وواضحٌ من الآيات أن القسم فيها موجهٌ للمنكرين المعاندين من كفار مكّة الذين اتّهموا رسول الله بالكهانة والسحر والجنون والشعر بعد سماعهم لما جاء به من الحقّ والهدى فاستدعى الأمر كلّ هذه الأقسام ليزداد المقسم عليه توكيداً وتحقيقاً وتثبيتاً .

والمتأمّل في عنصري القسم هنا يلحظ أن ثمّت سرّاً وعلاقة وتناسباً في اختيار المقسم به (النّجوم) لما له من علاقات وارتباط بالمقسم عليه (القرآن الكريم) ، فكما أن الله خلق النجوم – المُقسَم بها أولاً – زينة للسماء ورجوماً للشياطين وجعلها هداية للعابرين والمسافرين في ظلمات البرِّ والبحر وهي ظلمات حسيَّة ، فإنّه قادرٌ على إنزال القرآن الكريم – المُقسَم عليه – ليكون زينة للقلوب وداحضاً لشبهات الشياطين وهداية للعالمين إلى الفطرة السّليمة والعقائد الصَّحيحة ، فآيات القرآن هادية في

(١) التحرير والتنوير: ١٢/ ١٥٤ .

(٢) انظر تفسير جزء عم : ٣٠ .

الظّلمات المعنويَّة ، بالإضافة إلى أنَّ حركة النّجوم اختفاءً وظهوراً تُحاكي وتتوافق مع تدلِّي جبريل من الأفق الأعلى ودنوِّه من رسول الله عليهما السّلام حين ينزل بالوحي ، كما أن بين عنصري القسم مشابهةً من جهة محلِّ النّزول فلمّا كان نزول الوحي من السماء من أرفع مكانٍ اختير المقسم به أيضا من أرفع مكان في السّماء أيضا .

كما أن مجيئ المقسم عليه (القرآن الكريم) عقب القسم بقوله تعالى : ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، «نمطٌ بيانيٌّ بالغ الدِّقة ، فكأنّ الله يريد أن يقول : القرآن في هدايته للنّاس كالصبح في إشراقه وبثِّ الحياة في الكائنات بعد سكونٍ وظلام»[(١)]، يقول الدكتور محمد أبو موسى عن العلاقة والتناسب بين المقسم به والمُقسم عليه : «وإذا كشفت غلالة ثانية عن هذا القسم وجوابه وجدت صورة هذا الظلام الهارب الماثل في الخُنَّس والجواري الكُنَّس والليل إذا إنجاب وعسعس ، ومن وراء هذا الظلام الهارب صبح يتنفّس ، وما أشبه ذلك بالكتاب الذي نزل به رسول كريم على نبيٍ أمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النّور» [(٢)].

وهذا الملحظ البيانيّ لبيان ارتباط المقسم به بالمقسم عليه لحظته – أيضاً – الدكتورة عائشة بنت الشاطئ حين تناولت ظاهرة أسلوب الإقسام بالليل في القرآن الكريم متجاوزة رأي العلماء السائد : « أنّ الإقسام بالواو يحمل معنى التعظيم للمقسَم به» ؛ إذ ما من شيء من مخلوقات الله تعالى لم يخلق لحكمة ظاهرةٍ أو خفيّةٍ ، وأما القول «الذي اطمأنّت إليه بعد طول تدبّرٍ وتأمّلٍ في السّور المستهلَّة بهذه الواو هو أن القسم بها يمكن أن يكون – والله أعلم – قد خرج عن أصل الوضع اللغويِّ في القسم للتّعظيم إلى معنىً بيانيٍّ على نحو ما تخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام عن أصل معناها الذي وضعت له، لملحظٍ بلاغيٍّ، فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتاً قويّاً إلى حسيّاتٍ مدركة

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغيّة : ١/ ٢١٣ .

(٢) دلالات التراكيب : ٢٢١ .

ليست موضع غرابة أو جدلٍ توطئة إيضاحيّةٍ لبيان معنويّات أو غيبيّات لا تُدرك بالحسّ ، فالقسم بالواو .. أسلوبٌ بلاغيّ لبيان المعاني بالمدركات الحسيّة وما يُلمح فيه من الإعظام ، إنما يُقصد به إلى قوّة اللفت ، واختيارُ المقسَم به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف ، وحين نتتبع أقسام القرآن .. نجدها تأتي لافتة إلى صورة ماديّة مُدرَكة وواقع مشهود ، توطئة بيانيّة لصورة أخرى معنويّة مماثلة غير مشهودة ولا مُدركة يُماري فيها من يماري ، فالقرآن الكريم في قسمه بالصبح إذا أسفر ، وإذا تنفس ، والنهار إذا تجلى ، والليل إذا عسعس ، وإذا يغشى ، وإذا أدبر ، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النُّور والظُّلمة ، وهذا بيانٌ للمعنويِّ بالحسيِّ، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو فتقبلها دون تكلف أو قسر في التأويل»[1]، فالإقسام بظهور النجوم بعد اختفائها ، وبظهور الصباح وإشراق شمسه بعد إدبار الليل صورة حسيَّة وواقع مشاهد يمهد لموقف مماثل غير حسيٍّ ولا مشهود هو إشراق القرآن الكريم وتألق نجمه بعد إطباق إدبار سواد الجاهلية الكثيف المطبق على البشريّة قبل بعثة رسول الله ﷺ .

وإضافة القول ونسبته إلى الرسول (جبريل عليه السلام) مجاز ؛ لأنه قول الله وكلامه في الحقيقة ؛ وإنما جبريل عليه السلام مبلِّغه عن ربِّه ، فهو الذي نزل بالقرآن وحياً من الله جلَّ جلاله وحمله إلى رسوله ﷺ ، يقول القاضي عبد الجبار : «وربما قيل في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ يعني جبريل عليه السلام ، كيف يصحّ إضافة القرآن إليه وهو كلام الله ؟، وجوابنا : أنه المظهر لذلك حتى لولاه لما عرف فصحّت إضافته إليه ، وقد يضاف كلام الغير إلى من تحمّله ، وذلك كثيرٌ في اللغة»[2]، وكما أضاف القرآن هنا لجبريل عليه السلام ، فقد أضيف القرآن إلى محمد صلى الله عليه

(١) التفسير البياني في القرآن الكريم : ١/ ٢٥ (تفسير سورة الضحى) .
(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٤٥٢ .

وسلم فقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾[سورة الحآقة] ، « فأضافه إلى الرسول الملكي تارةً ، وإلى البشري تارةً ، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسْبتان»(١) .

وأُوثر في كلا المقامين التَّعبير بوصف الرسالة ﴿رَسُولٖ﴾ دون صفة الملوكية أو النبوة مثلاً ؛ تأكيداً لمعنى التَّبليغ وحَمْل الوحي وإنزاله ، فـ (الرسول) يُبلغ رسالة وكلام من أرسله كما هو دون زيادة أو نقصان ، وإيماءً إلى أنّ القول الذي يُبلغه هو كلام الله تعالى تكلم به حقيقة ، سمعه جبريل عليه السلام من الله تعالى ، ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام سمعه من جبريل عليه السلام ، وأن كلاً منهما بلَّغه عن الله فهو قوله مبلغاً ، وقول الله المتكلم به حقيقة ، «فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله – تعالى – متكلماً بالقرآن– وهو كلامه حقاً – في هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وأنه ليس للرسولَين الكريمَين منه إلا التبليغ»(٢) .

والمتأمّل في جملة جواب القسم يلحظ اشتمالها على عناصر تأكيد في نظمها محققة للمضمون المراد إثباته ، فقد افتتحت بحرف التأكيد المثقَّل (**إنَّ**) الذي ربط الكلام بما قبله ربطاً قويّاً فأغنى عن الحرف العاطف ، وزاد من قوّة الإسناد في الجملة فأكَّد نسبة هذا القول إلى الرسول ، وجعله في منزلة تكرير المسند إليه والمسند مرتين ، مع إدخال اللام المزحلقة إلى خبرها ، إضافةً إلى (الجملة الاسميَّة) الدَّالّة على تحقّق وديمومة صدْق ما جاء به الرسول ، وثبوت أن القرآن منزل من عند الله جل جلاله ، مما يُوحي بأهمِّيّة شأن الأمر المُؤكَّد وعظيم الاهتمام به ، كما أنَّ هذا الأسلوب من شأنه أن يتلاءم مع حال كفَّار قريش في موقفهم من إنكار القرآن الكريم وشدَّة تكذيب نزوله من عند الله سبحانه وتعالى ، فقد اقتضت حالهم كلّ هذه المؤكِّدات اللفظية ؛ لاقتلاع ما وقر في قلوبهم من كذب الذّكر الحكيم واختلاق رسول الله له .

---

(١) التبيان في أيمان القرآن : ١٩١ .

(٢) التبيان في أيمان القرآن : ١٩٢ .

ورغبةً في مضاعفة تأكيد المعنى المقسم عليه ومضمونه بأسلوبٍ آخر (وهو أن القرآن الكريم وحي الله إلى رسوله) انتقل إلى وصف مصدري القرآن الكريم ، وهما : جبريل عليه السلام ، ومحمّد رسول الله ، فوصف جبريل عليه السلام الذي كُلِّف بمهمَّة نزول القرآن من السماء وتبلغيه بخمسة صفاتٍ شريفةٍ ؛ إعلاءً لمكانته وشأنه عند ربِّه ، وتشريفاً وتعظيماً لمنزلته ، ودلالةً على شرف القرآن الكريم بأنْ نزل به هذا الملك العظيم الذي هذه هي صفاته ونعوته ، وهي :

١. ﴿كَرِيمٍ﴾ أي عزيز على الله جلَّ جلاله .

٢. ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾ أي ذو قوّة في الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ ، وذو قدرةٍ على ما يُكلّف به ، وقد جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [سورة النجم] ، وهو «ليس ذا قوةٍ فحسب وإنّما ذو قوّة عند صاحب الهيمنة والسلطان ؛ ولهذا ذكر **ذا العرش** ولم يقل عند الله» [(١)] .

٣. ﴿مَكِينٍ﴾ فهو رفيع المكانة والمنزلة عند ربِّه يُعطيه ما سأله .

٤. ﴿مُّطَاعٍ﴾ في الملأ الأعلى عند ملائكة الله المقرّبين بدلالة تعبيره بظرف المكان للبعيد ﴿ثَمَّ﴾ بمعنى : هناك ؛ إشارة إلى الظرف المذكور وهو : ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ﴾ ، فالملائكة يرجعون إلى أمره ، ويصدرون عن رأيه ؛ علماً منهم بقوته وشدَّته وأمانته ، وأن إيراده وإصداره منوطٌ بإذن ربّ العزّة جلّ وعلا .

وقُرِئ بضمّ الثاء ﴿ثُمَّ﴾ [(٢)] على أنها حرف عطفٍ للتّراخي في الرّتبة ، تعظيماً لأمانة جبريل وبياناً أنها أفضل صفاته المعدودة ، وأعظم ممّا قبلها من الصفات ، فقال :

٥. ﴿أَمِينٍ﴾ على وحي ربِّه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به ، وجنّبه الزّلل فيما يقوم به من الأعمال ، للإشعار بعظم صفة الأمانة فيه وعلو مرتبتها عمَّا قبلها

(١) دلالات التراكيب : ٢٢١ .

(٢) انظر هذه القراءة في : زاد المسير : ٩ / ٤٣ ، والدرّ المصون : ٦ / ٤٧٨ .

من الصفات ، وذلك مشعرٌ بصيانة القرآن الكريم عن التحريف والتّبديل .

وفي وصف جبريل عليه السّلام – وهو أحد مصادر القرآن – بكلِّ هذه الصِّفات التي تُؤكِّد صدقه ونزاهته ، وأنّه لا يتقوَّل على الله تعالى ، وحَشْد كلِّ هذه المؤكِّدات اللفظية ، تهيئةٌ ومقدّمة للدِّفاع عن رسول الله ﷺ ضدِّ مطاعن المشركين وافتراءاتهم في حقِّه ، ومن هنا كان من المناسب إتباع وصف الرَّسول الملكيِّ بوصف المرسَل إليه والدِّفاع عنه وإبطال مطاعنهم في حقِّه ؛ لإثبات نزاهته ورشده ورجاحة عقله وصدق نبوّته وما جاء به من الذِّكر الحكيم ، فقال عزَّ في علاه : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ ، فنفى عن رسوله ﷺ ثلاثةً من افتراءات ومطاعن كفار مكَّة في حقِّه الشَّريف كانوا يتقوَّلونها عليه ، إذ رموا نبيّ الله بالجنون ، وزعموا أنَّ القرآن يأتيه به شيطان رجيم ، وكلُّ ذلك لأنّهم كذَّبوا بالقرآن الكريم الذي أوعدهم بالبعث والنّشور ، فجاء نَفْيها في إيقاعات عنيفة تهزّ القلوب هزّاً كأنها مطارق متوالية ، وهي :

١. قوله تعالى : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ فنفى عنه صفة الجنون التي كانت قريش ترميه بها حين كانت تسمع منه حديث البعث والنّشور ، وغرائب الأخبار والأهوال عن اليوم الآخر ممّا لم يكن معروفاً لهم ، وقد حكى القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الدخان] ، ورمْي أنبياء الله بالجنون عادة في الأمم كلّها قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الذاريات] ، والمقصود من نَفْي الله تعالى صفة الجنون عنه ﷺ إثبات ما قصد المشركون نَفْيه وهو الرسالة ، فهم نفوا أن يكون محمد رسولاً من عند الله تعالى ، وأثبتوا له موضع الرسالة صفةَ الجنون ، فإذا نفى القرآن ما زعموه وهو (الجنون) استلزم ذلك رشده وعقله وسلامته من الآفات والخلط والإلباس ، ومن ثمَّ ثبت ما أخبرهم به وهو أنه مرسل من عند الله تعالى بلّغنا

القرآن الكريم كما أُنزل من ربِّه وتلفت أولئك المخاطبين ببُعْدهم هم عن الهداية والرَّشاد وإلى أنهم هم الضالون الغاوون ، ولذا تكرَّر في القرآن نفي الجنون عن رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾[سورة الطور] ، وقال تعالى : ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة القلم] ، ومجيئ هذا النَّفي جملةً اسميَّة ؛ إذ لم يقل : (لست بمجنون) ؛ ليدل على ثبات نفي مضمون هذا الخبر وديمومته وتحقّق نفي نسبته إليه على جهة الدَّوام والاستمرار .

والآية معطوفةٌ على جملة جواب القسم قبله فهي داخلة في حيز الجواب مؤكدة بالقسم السابق ، فيكون الباري – عزّ شأنه – أقسم على أنَّ القرآن نزل به جبريل عليه السّلام ، وأقسم أنَّ محمداً ﷺ ليس بمجنون كما يدَّعيه أهل مكَّة ، فهو محض افتراءٍ منهم .

ومن تأمَّل آيات البيان القرآني يلحظ تكرّر التعبير عن رسول الله بـ(**الصُّحبة**) في سياق إبطال القرآن الكريم لرمي المشركين لرسول الله – وحاشاه – بالجنون ، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾[سورة الأعراف] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة سبأ] ، وقال تعالى : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾[سورة النجم] ، وهنا قال تعالى : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة التكوير] ، وهذا الوصف كناية عن صفةٍ وهي الاختلاط والمعرفة التّامّة ؛ لأنّ الصّاحب هو الذي يلازم غيره طويلاً فلا يخفى عليه حاله .

وإيثار التَّعبير بوصف ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ واصطفائه في هذا المقام دون غيره من الأوصاف والأسماء ؛ للإشعار بأنّ من وصفوه بالجنون هم أعرف الناس به ، وأكثر علماً بحاله لاشتداد مخالطتهم له ، فقد عرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من أنه أعقل الناس ، وأكملهم استقامة ورشداً ، وأرجحهم عقلاً وحلماً ، وأنّه أنزه البشريَّة وأشرفها وأصدقها لهجة ، لطول صحبتهم له منذ صغره حتى سمّوه بالصّادق الأمين ، وبذلك

فإنّ الحُجَّة على كذبهم في دعواهم بنسبة الجنون لرسول الله قائمة عليهم ، فإنّه إذا كان صاحبهم وكانوا قد خالطوه وعاشروه وعرفوه تمام المعرفة ، لم يكن ادّعاؤهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلا من القول وزورا ، مع ما يلوح منه من الإنكار والتّوبيخ والتقريع لهم ومزيد تأكيد وتقرير لإقامة الحجَّة عليهم وإشعارهم بأنهم كذبة عند أنفسهم ، يقول الإمام ابن القيم : «وتأمّل كيف قال سبحانه : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ، ولم يقل : ما ضلَّ محمدٌ ؛ تأكيداً لإقامة الحُجَّة عليهم ، بأنّه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله ، وأنّهم لا يعرفونه بكذبٍ ولا غيٍّ ولا ضلالٍ ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قطُّ ، وقد نبّه على هذا المعنى بقوله : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون : ٦٩] ، وبقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة التكوير] »[(١)].

ومما يلحظ في البيان القرآنيّ أنَّ إبطال صفة الجنون عن المقام السامي لرسول الله يكتفي فيه بمجرد النَّفي دون ذكر شواهد أو أدلَّةٍ عليه ؛ لأنَّ حال النبي ﷺ كافٍ في استئصال هذا الوصف وذلك بأدنى تأمّل في حاله ، لذا لم يحتج في إبطالها إلى أكثر من الإخبار بنفيها لظهور دليله بالمشاهدة والمعايشة ، وهو ما جاء مصرَّحاً به في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة سبأ].

وتأكيداً لنفي الجنون والكذب عن رسول الله ، وتقريراً لقوَّة سند القرآن وجلالته وحفظ الله له ، شرع في الحديث عن رؤية رسول الله ﷺ لجبريل عليه السّلام بين السماء والأرض ، فقد تجلّى له في صورته الحقيقيّة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح بالأفق الذي تطلع منه الشمس فتبين الأشياء وتظهر ، وأُعلم أنّه جبريل عليه السّلام فعرفه ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ فعزَّز حصول هذه الرؤية البصريّة بعدَّة مؤكِّدات هي : **(اللام)** الواقعة في جواب قسمٍ مقدر ، وحرف التحقيق **(قد)**

(١) التبيان في أيمان القرآن : ٣٦٥ ، وانظر : دلالات التراكيب : ٢٢١ .

الدّاخل على الفعل الماضي ممّا يؤكِّد حقيقة حصولها ويقرّر مضمونها ، فهي رؤيةٌ قد حصلت وفُرِغ منها وتحقَّقت ، وغرابة الخبر تحتاج لهذا التأكيد والتَّثبيت ، إذ من رأى وأبصر بعضاً من آيات ربّه الكبرى كرؤية جبريل عليه السلام بمطلع الشمس من جهة المشرق كيف يتأتّى في حقّه نسبة الجنون إليه ! ، بل هو الصادق فيما يُبلِّغهم عن ربه الأمينُ عليه .

وأسند الإبانة ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ إلى الأفق ومطلع الشَّمس ونعته به مجازاً عقليا باعتبار المكانية ؛ لأن نفس الأفق لا تبين به الأشياء ولا مدخل له في تبيينها وظهورها ، وإنما تبين وتتّضح غاية الوضوح حقيقةً بطلوع الشّمس في الأفق .

٢. قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ فنفى عن رسول الله أن يكون بخيلاً بخبر السماء ، أو مقصِّراً في تبليغ وحي الله وأحكامه للنّاس كما أمره ، وقيل : نفى عن رسوله أن يكون متَّهماً على أداء القرآن الكريم ، وما فيه من أخبار وأحكام ، فهو ثقةٌ أمين صادق لم يعرف الكذب ، فلم يُبدّل منه حرفاً بحرف ، ولم يزد فيه ولم ينقص منه .

وهذا من الإعجاز البياني فاختلاف المعنى هنا كان لاختلاف قراءتين وردتا على لفظ واحد بغرض تكثير المعاني مع غاية الإيجاز والاختصار ، فقوله : ﴿بِضَنِينٍ﴾ قُرئت عند الأكثرين بالضَّاد ﴿بِضَنِينٍ﴾، وعند بعضهم بالظاء (بظنين)[1]، والمعنى على القراءة الأولى : ببخيل ، أي لا يبخل ويشحّ بوحي السَّماء فلا يُبلّغ ما أُنزل عليه كما يفعل الكاهن حتى يُعطى حلوانه[2] ؛ إذ الضَّنين بلغة قريش هو البخيل[3]، والمعنى على القراءة الثَّانية : بمُتَّهم [4] فالظَّنين بلغة هذيل هو المتَّهم ، وقيل المعنى : ما هو على

(١) بالظاء قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ، وقرأ باقي السبعة بالضاد ، انظر السبعة في القراءات : ٦٧٣ لابن مجاهد، والتبصرة في القراءات : ٣٧٢ لمكي القيسي ، والتيسير في القراءات السبع : ٢٢٠ لأبي عمرو الداني .

(٢) ينظر معاني القرآن : ٣ / ٢٤٣ للفراء ، وتفسير غريب القرآن : ٥١٧ لابن قتيبة ، وتفسير الطبري : ٣٠ / ٨١ ، ومعاني القرآن : ٥ / ٢٩٣ للزجاج .

(٣) انظر لغات القبائل : ٥١ ، ولهجة هذيل : ٤٧٣ .

(٤) ينظر معاني القرآن : ٣ / ٢٤٣ للفراء ، ومجاز القرآن : ٢ / ٢٨٨ لأبي عبيدة ، وتفسير غريب القرآن : ٥١٧ لابن قتيبة ، وتفسير الطبري : ٣٠ / ٨١ ، ومعاني القرآن : ٥ / ٢٩٣ للزجاج .

الوحي بضعيف القوة على التبليغ من قولهم : (بئرٌ ظنونٌ) إذا كانت ضعيفة وقليلة الماء [١]، يقول أبو منصور الأزهري : «من قرأ (وما هو على الغيب بظنين) فمعناه : ما هو بمتَّهم ، هو الثِّقة فيما أدَّاه عن الله ، والظِّنَّة التُّهمة ، ومن قرأ ﴿بِضَنِينٍ﴾ فمعناه : ما هو ببخيلٍ على الغيب الذي يُؤدِّيه عن الله وعلى تعليمه كتاب الله ، مأخوذ من الضَّنِّ وهو البُخل ، وقال الفرَّاء : ما هو على الغيب بظنين أي بضعيف يقول : هو مُحتملٌ له ، قال : والعرب تقول للرّجل الضَّعيف هو ظنون ، قال : وسمعت بعض قضاعة يقول : رُبَّما ذلك على الرَّأي الظّنون يريد الضَّعيف من الرِّجال .. » [٢] .

وقد أشار العلماء إلى أنَّ من وجوه إعجاز القرآن الكريم وإيجازه : تعدّد القراءات للفظ الواحد بحيث يكون لكلِّ قراءة معنى، قال السيوطي : هو «نوعٌ عظيم من البلاغة وهو أن يكون اللفظ الواحد بجوهره يُقرأ على وجهين ، فيفيد بهذا الاعتبار معنيين » [٣] ، وقال أيضاً : « إنَّ تعدّد القراءات بمنزلة تعدُّد الآيات»[٤].

وأشار لذلك الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره فقال: «والظنُّ أنَّ الوحي نزل بالوجهين وأكثر ؛ تكثيراً للمعاني إذا جزمنا بأنّ جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورةٌ عن النبي ﷺ ، على أنه لا مانع من أن يكون مجيئ ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى ليقرأ القرّاء بوجوه فتكثر من جرّاء ذلك المعاني ، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئاً عن آيتين فأكثر ... وهو من زيادة ملائمة بلاغة القرآن ، ولذلك كان اختلاف القرّاء في اللفظ الواحد من القرآن قد يكون معه اختلاف المعنى ولم يكن حَمْل أحد القراءتين على الأخرى متعيِّناً ولا

(١) انظر البحر المحيط : ٨ / ٤٢٦ .

(٢) علل القراءات:٧٥٠ ، وانظر معاني القرآن:٣ / ٢٤٣ للفراء ، ومعاني القرآن :٢ / ٥٣٠ للأخفش الأوسط ، وفي مختصر الخازن : ٣/ ١٦٥٥ أن قراءة الظاء أولى ؛ لأنهم لم يُبخّلوه وإنما اتّهموه فنفى الله عنه تلك التّهمة .

(٣) قطف الأزهار في كشف الأسرار:١ / ٩٧، تحقيق : أحمد الحمادي ، طبع وزارة الأوقاف بقطر، ١٤١٤هـ .

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل : ١٠٩، تحقيق: سيف الدين الكاتب، ١٤٠١هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

مرجّحاً» [1] ، وعلى كلتا القراءتين فإن تقديم متعلق الخبر عليه ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ توكيد وتحقيق لتخصيصه ﷺ بانتفاء ودفع التهمة أو البخل عنه ، مع تحقيق التناسب برعاية الفاصلة حيث جاءت متماثلة مردوفة بالياء .

٣. قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ إذ زعموا أن رسول الله كان شاعراً وكاهناً ، وما يقرؤه من القرآن كلام استرقته الشياطين من السماء وألقته على لسانه ، أو شعر وحديث نفس ونسج خيال بثته الشياطين والجانّ في روعه ؛ إذ منبع الشعر عندهم من الشياطين ، فنفى عن قرآنه أن يكون من قول شيطان رجيم فيسقط بذلك نسبة الشاعرية والكهانة إليه ، وقد أشار بعض المعاصرين إلى أن اتِّهام الرسول بالسحر والجنون لم يكن مقصورا عليه فقد اِتُّهِم أنبياء الله بذلك أيضا ، بخلاف اتهامه بأنه كاهن وشاعر فلم تُوجَّه هذه التهمة إلا لرسول الله دوناً عن بقية أنبياء الله ، وذلك «من دقائق القرآن ، حيث كان الشعر والكهانة فنَّين متميزين في البيئة العربية خاصة ، وكان للكهان والشعراء منزلتهم المعروفة في هذه البيئة ، فكان تمييز الرسول ﷺ بهذين الاتّهامين نابعاً بالتالي من تميّز بيئته بهذين الفنين» [2] .

والمتأمِّل في السِّياق القرآني للآيات الثلاثة يلحظ أن تفنيد هذه المطاعن وتفكيك هذه التّهم عن جنابه الكريم جاء مؤكدا بالجملة الاسمية الخبرية المنفية الدَّالّة على ثبوت هذا النفي وتحقّقه وديمومته ، ومؤكَّداً بحرف الصِّلة (الباء) في مقام الجحد والإنكار في قوله : ﴿بِمَجْنُونٍ ، بِضَنِينٍ ، بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ﴾ ، وذلك مواءمةً لحال هؤلاء المنكرين المعاندين من كفار قريش ، فإنكارُهم قد تجاوز الحدِّ إلى كلِّ نقيصةٍ نسبوها لرسول الله للحطِّ من شأنه الشريف ، واتّهامُهم قد تضاعف إلى كلِّ إفكٍ مبين رموا به كلامه للتَّنقّص من قَدْره العظيم ، فكان المناسب للسِّياق القرآنيّ أن يخاطبهم على هذه

(١) تفسير التّحرير والتنوير: ١/ ٥٥.

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني:٢٤٠، د. السيد عبد المقصود، ط١ / ١٤١٣هـ ، دار الطباعة والنشر الإسلامية .

الصُّورة من التَّأكيد المكثَّف علّهم ينكفئون عن هذا الإفك المبين المفترى ، وذلك في سياق جملٍ قصيرةٍ ومقاطع حاسمة ؛ إذ من كان شأنه ذلك «هل يكون من المناسب معه الحديث بأسلوبٍ لين هادئ ، بعد أن ضاعت معه أساليب المنطق الهادئة ؟ لا ، فكلَّما كان الموقف يحتاج إلى حسمٍ وشدَّةٍ وتخويفٍ وتهديدٍ وزجرٍ كانت الفقرات القصيرة ، والكلمات المعبِّرة الشّديدة الوَقْع أشدّ مناسبةً لهذا الموقف ، وهكذا كان القرآن وهو في الذّروة العليا من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال ، فإذا وجدت آياتٍ أو سوراً قصيرة ، وأسلوباً يزمجر ويُهدِّد ويقسو ويشتدّ ، يردّ هجوماً على رسول الله ﷺ ويُهدِّد المعتدين فاعلم أن هذه آياتٍ مكيَّةٍ »[1] .

ولأهمِّية هذه القضية الكبرى فإنَّ القرآن الكريم قد احتفى بها وبتوكيدها على نحوٍ مؤكَّدٍ غاية التأكيد ففي صدر سورة النّجم قال تعالى : ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ ، وقال في سورة الواقعة : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾.

ومن ينعم نظره يلحظ وجوهاً من التشابه بين هذين المقطعين من سورتي النّجم والواقعة مع سورة التكوير منها : أنَّ الله أقسم فيها بالنّجوم فشرّفها بذلك وعظَّمها ، وقد عرفنا بعضاً من وجوه التّناسب والعلاقة بين عنصري القسم (المقسم به والمقسم عليه) ، كما جاء فيها الحديث عن مصدري كتابه العظيم : جبريل عليه السّلام ورسول

(١) علوم القرآن الكريم : ٦١ ، د. عبد المنعم النمر ، ط٢/ ١٤٠٣هـ ، دار الكتب الإسلاميَّة .

الله الصّادق الأمين ، وإثبات صدق ما نطق به من الوحي والذّكر من خلال تفنيد مطاعن خصومه ومناوئيه ، وفي ذلك دلالة على إعجاز القرآن الكريم وروعة بلاغته وعلوِّ فصاحته ، فإن المخاطبين وهم كفار قريش لّما لم يجدوا في القرآن المُوحَى به ما يقدح في نظمه من عيبٍ ونقص وتناقض وباطلٍ لجئوا إلى التّشكيك في مصدريه مع علمهم بصدق رسول الله وكماله ونزاهته فكان إثبات حقيقة الوحي على هذا النّحو المؤكّد غاية التأكيد زيادةً في توبيخ المخاطبين وتقريعهم

ويترى توبيخ الكفار ويتتابع تقريعهم على عنادهم واستكبارهم وتنكُّبهم جادّة الصّواب ، وانحرافهم عن صراط الله المستقيم ، فيتكفَّل الاستفهام به إذ قال عزَّ شأنه عقب ذلك : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، وهو استفهامٌ ليس على حقيقته، بل هو عند البلاغيِّين مجازٌ للتنبيه على ضلال المخاطبين[1] فيما يعبدون من دون الله تعالى ، وتبكيتهم وتوبيخهم على خطئهم فيما يقولون في حقِّ رسوله الكريم ، وإبطال ما يدّعونه في حق كتابه العظيم من ادعاء أنه سحر وكهانة ، وهذه الآية هي الشاهد الوحيد عند البلاغيّين لهذا الغرض والمعنى في القرآن الكريم حتى ذهب بعضهم إلى أنّ هذا الأسلوب من مبتكرات القرآن وتفرّداته حيث لم يُسمع في أشعار العرب وخطبهم[2] كقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف:١٤٩] فاسمُ الاستفهام ﴿أَيْنَ﴾ وليه مضارع مثبت﴿ تَذْهَبُونَ ﴾ فتحقَّق الشرط الذي به يتمّ هذا المعنى[3] ، والفاءُ المتصلة بـ﴿أَيْنَ﴾ الاستفهامية رابطةٌ لجواب شرط مقدَّر تقديره : إنْ كان أمر رسولنا ووحينا (القرآن) كما وُصِف لكم آنفاً ، فأين تذهبون يا كفَّار مكّة بعدئذٍ عنه إلا إلى ضلالاتٍ ومتاهات ؟ وما بالكم لا تهتدون مع كلِّ هذه الأدلة والبراهين ؟ إذ الحقُّ قد انكشف لكم ؛ فلا طريق للصّواب أبينُ من هذه الطريق التي بيَّنتُ لكم ، إن الذي

(١) انظر : مفتاح العلوم : ٣١٥ ، والتلخيص : ١٦٤ ، وشروح التلخيص : ٢ / ٢٩٢ ، والمطول : ٢٣٥ .
(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير : ٣٠ / ١٦٤ .
(٣) انظر : دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ق١ / ج١ : ٦٠٠ .

يُعرض ويتولّى بعد هذا البيان يكون ذاهباً إلى متاهاتٍ ، منغمساً في ضلالٍ مبينٍ ، يقول أبو السعود : «والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور أنه وحي مبين ، وليس ممّا يقولون في شيءٍ كما تقول لمن ترك الجادّة بعد ظهورها : هذا الطريق الواضح فأين تذهب ؟ » (١) .

وصيغة الفعل المضارع المُعبَّر بها في سياق الاستفهام ﴿تَذْهَبُونَ﴾ الدالّة على التّجدّد والاستمرار تُشعر بعموم الإنكار عليهم في كل الأزمان والأوقات .

وقول العلماء إن الاستفهام في الآية السابقة للتنبيه على ضلال المخاطبين ليس حصراً لمعنى الاستفهام في ذلك بل لأنه المعنى الظاهر منه ، وإلا فإنه بجانب ذلك يفيد معنى إثارة مشاعرهم وحثّهم على التّفكّر والتأمّل ليُقبلوا على الحقّ ويتركوا طريق العناد واللجاجة ، وقد أشار الدكتور محمد أبو موسى إلى أنّ إدراك هذا المعنى من الاستفهام يتطلّب الرجوع إلى سياق الآيات السابقة بدءاً من القسم بالنجوم الخُنَّس وما بعدها حيث إنّ « الآيات تُبين مصدر القرآن وأنه نزل به جبريل الذي هذا وصفه ، على محمدٍ الذي هذا وصفه ، فأين تذهبون حين تقولون : إنّه إفك وأساطير الأولين ؟ ، لا شكّ أنّكم ذاهبون في ضلالاتٍ ومجاهل .. فإذا كان هذا هو الحال في بيان القرآن ونزوله وأنّه كلام صاحب الهيمنة على الخُنَّس وظواهر الطبيعة من ليلٍ يُدْبر وصبحٍ يُقبل ، وأنّه نزل به روح أمين ذي قوةٍ عند ذي العرش ، ونزل به على من أنتم أعرف الناس بصحّة نفسه وصدق طبعه فأين تذهبون ؟ ، واضحٌ أنّ الاستفهام هنا ليس تنبيهاً على ضلالٍ فحسب ، وإنّما هو بجانب ذلك إنكار ونفي واستجهال وتشهير بغفلتهم وتضييق عليهم ، وأنهم لا يجدون ما يبين وجه الصواب في تقلبهم ، وفيه من وجه آخر إغراء لهم باتّباعه وأنه الحق وليس بعده إلا الضلال» (٢) .

---

(١) تفسير أبي السعود ٩ / ١١٧ .

(٢) دلالات التراكيب : ٢٢٠- ٢٢١ .

ويرى السيّد الشريف أنَّ إيثار التّعبير بطريق الاستفهام هنا دون التّصريح بكونه طريق ضلال فيه مبالغتان « إحداهما : أنّ كونه طريق ضلال أمر واضح يكفي في العلم به مجرَّد الالتفات إليه ، والثانية : إيهام أنّ المخاطب أعلم بذلك الطّريق من المتكلّم ، حيث يحتاج إلى السؤال عنه» (١).

ويميل بعضهم إلى أنَّ الآية من قبيل الاستعارة التّمثيليَّة المركبة تشبيهاً للمعقول (وهو حال الكفار المعنوية) بالمحسوس حيث «شُبِّهت حالهم في تركهم ما هو الصّواب والحقّ في باب الاعتقاد والعمل ، وعدولهم إلى ما هو الباطل في ذلك ، بحال من يترك الجادّة وهي معظم الطريق ويتعسّف إلى ما ليس بسبيلٍ قطّ ، فإنّه يقال له : إلى أين تذهب ؟ استضلالاً له وإنكاراً على تعسّفه ، فقيل ذلك القول لمن ترك الدين الحقّ وعدل عنه إلى الباطل على سبيل الاستعارة ، والمعنى : أيّ طريقٍ تسلكون أبين من هذا الطّريق الذي ظهرت حقيقته ووضحت استقامته ؟» (٢).

ويرى آخرون في هذه الآية كناية معدودة من الكنايات اللطيفة حيث «دُلَّ على إنكار الذّهاب بإنكار المكان الذي يمكن أن يذهبوا فيه ، وإنكار مكان الشّيء يستلزم عدم وجود ذلك الشيء» (٣).

وبعد مجيء هذه الجملة المعترضة التي سيقت استضلالاً للكفار ، وقطعاً لكل أعذارهم ، استأنف الكلام استئنافاً بيانيّاً فقال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فجاءت الآية مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال ، وشبه كمال الاتصال (الاستئناف البياني) فيه اتصال داخلي بين أجزاء الكلام ؛ لأن الجملة المستأنفة أبانت عن معنى أثارته جملة قبلها وهذه هي المناسبة التي ربطت بين قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وما قبلها ، فالآيات السابقة التي نفت مطاعن المشركين وافتراءاتهم في حق رسول الله

(١) حاشية السيد الشّريف على المطوّل : ٢٣٥ .

(٢) حاشية زاده على تفسير البيضاوي : ٤ / ٦٢٩، وانظر الكشاف : ٤ / ٧١٤ .

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : ٤ / ٣٤٦ .

وما جاء به جعلت السامعين يترقَّبون معرفة كنه هذه المعجزة الربانيَّة ، ويتشوّقون لمعرفة المهمة الجليلة التي من أجلها أُنزل القرآن المجيد ، فكان قوله تعالى : ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ جوابا عمَّا يجيش في نفوسهم ، وهي بمنزلة المتَّصلة بالكلام السابق لكونها جوابا عن سؤال اقتضاه الكلام السابق فتُنزَّل منزلته فتُفصل عنه بترك العاطف كما يُفصل الجواب عن السؤال ؛ لما بينهما من غاية الاتصال في المعنى ، وهو ما يُسمّى عند البلاغيين في باب الفصل والوصل : شبه كمال الاتصال ، «والمعاني في شبه كمال الاتصال تتواصل من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية ، وكأنها أصل ينبثق منه الفرع» (١).

وقد تضمَّنت الآية الإشارة – بغاية الإيجاز والاختصار – أنَّ القرآن الكريم موعظة للخلق أجمعين وتذكير لهم ، فهو مصدر الهداية والإرشاد للبشريَّة جمعاء ، وكتاب الإسلام الخالد ، وخطاب الله تعالى لجميع الأمم يدعوهم إلى عبادة الله وحده بإخلاصٍ دون شريك ، ويحثهم على إقامة تعاليمه السمحة ، وفي الآية أيضاً ردٌّ على كفار مكّة وغيرهم وتكذيب لهم ؛ إذ لّما كان مدار حكمهم الباطل بالجنون على رسول الله ما سمعوه منه من القرآن الكريم ردّ ذلك ببيان علوّ شأنه وسطوع برهانه من خلال هذه الآية ، فما القرآن الكريم الذي يتلوه عليهم آناء الليل وأطراف النّهار إلا ذكرٌ وعظة وعبرة للعالمين من الأنس والجنّ ، ومن يُبلِّغ ذِكْراً هذا وصفه فإنه يستحيل أن يوصف بالجنون ؛ لأن المجنون لا يذكر شيئا ولا يُحْكِم قولا ، إذ لا يقدر على أدائه وإبلاغه إلا أكمل النّاس عقلاً وأرشدهم رأياً وهو محمدٌ رسول الله ﷺ ، ففي الرّد القرآني على الكفار إدماج ؛ حيث أثبت الذكر للقرآن الكريم صراحة ، ونفى الجنون عن مبلِّغه ﷺ ضمناً في آيةٍ واحدة ، وكأنه من خلال مسلكه هذا ينعي على الكفار سفاهة عقولهم وحماقة أحلامهم لعدم تدبّرهم هذا الذّكر الحكيم الذي يُثبت كمال من نزل عليه.

(١) دلالات التراكيب : ٣٠٨ – ٣٠٩ ، وانظر شروح التلخيص : ٣/ ٥٢-٥٣ .

والتَّعبيرُ بالعالميّة في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ؛ لأن دعوته ﷺ عامة لجميع الناس ممَّا يُؤكِّد أنَّ القرآن الكريم أعلن منذ بداياته الأولى عالميّة هذا الدّين الحنيف ، فهو ليس لجنسٍ دون جنس ، ولا أمّةٍ دون أمّة ؛ إذ سورة التّكوير من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، فهي السّورة السابعة في ترتيب النّزول ، وقد تردَّد كثيراً وصف القرآن الكريم بالمصدر (**ذِكْرٌ**) للعالمين ، ففي سورة القلم – وهي الثّانية نزولاً من القرآن الكريم – قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ ، وفي سورة يوسف قال تعالى : ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ، وفي سورة يس قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾، وفي سورة ص قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وفي موطنٍ واحد وُصِف باسم المصدر (**ذكرى** للعالمين) وذلك في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾وفي كلِّ الآيات السّابقة جاء القصر قصر موصوف على صفة ، قُصِر القرآن الكريم على صفة التذكير بمعنى (ذكر التوحيد والبعث والثواب والعقاب) والإرشاد للعالمين كآفَّة ؛ إذ الضمير ﴿هُوَ﴾ عائد على القرآن الكريم ، والقصرُ هنا – فيما يظهر لي – قصر قلب لورود هذه الآية في سياق تفنيد شبه الكفار والرَّدِّ عليهم في اختلاقاتهم على سيد المرسلين ، فقد كان كفّار مكّة يطعنون في القرآن الكريم ، ويرمونه بالبهتان والكذب ، وأنّه من جنس أساطير الأولين ؛ جحداً لنبوة المصطفى ﷺ ، فجاء القصر بالنّفي والاستثناء ليقلب هذا الاعتقاد على المخاطبين مع ما فيه من مفاجأة بعكس اعتقادهم ، ويردّ عليهم مزاعمهم بأبلغ ما يكون الرّدّ ، مقرِّراً حقيقة القرآن الكريم وعِظَم شأنه ، ودقة التعبير القرآني اقتضت اختيار أن يكون النفي هنا بحرف ﴿إِنْ﴾ ؛ إذ هو المناسب لسياق الرد ؛ فمن المقرّر عند علماء النحو أن النفي بـ ﴿إِنْ﴾ أقوى وآكد من النفي ﴿مَا﴾ وغيرها من حروف النفي ، بدلالة اقترانها في ثلاث ومائة موضع في القرآن الكريم بـ ﴿إِلَّا﴾ أو

﴿لَمَّا﴾ المشدَّدة التي بمعنى﴿إِلَّا﴾ وهذا يعطيها قوة وتأكيداً لإفادتها معنى القصر ، وهنا لما كانت درجة تكذيب الكفار وإنكارهم أشد جاء الرّد عليهم بأبلغ وأقوى ما يكون .

واختيار النفي والاستثناء طريقاً للقصر هنا جاء متوائماً مع موقف الكفار المكذّبين المعاندين من القرآن الكريم ، إذ هو أقوى طرق القصر ورأس بابه ؛ لما فيه من وضوح معنى القصر (النفي والإثبات) وهو يأتي في المقامات التي يكثر حولها الإنكار والشّك من المخاطب ، ومثل هذه المواضع والمعاني تحتاج إلى فضل تأكيد وتقرير ، وكفار مكّة المخاطبون بهذه الآيات وقت النّزول جحدوا كلام الله تعالى وأنكروا صحَّته ، فسياق الحديث مع مكذبين معاندين لذا اصطفى من طرق القصر أعلاها هنا ، كما أن للنفي والاستثناء دوراً في إبراز المعنى المراد وتحديده وتقريره في الأذهان ، إضافة لما فيه من إيجاز بليغ يقتضيه المقام ويتطلبه الموقف .

وفي قصر القرآن على صفة التذكر دون أية صفاتٍ أخر من أوصافه ؛ للمبالغة في وصف آياته بالتذكير ، وكأن هذه السور والآيات الذِّكْر نفسه ، وكأن الذكر قد تجسّد منه القرآن الكريم ؛ للدلالة على شدّة تمكّنه منه .

وقد جاء المسند هنا (الخبر) هكذا بصيغة المصدر ﴿ذِكْرٌ﴾ ؛ لأن الذِّكْر في هذا الكتاب في مرتبة عالية ، فكان المصدر أوفى بوصف ذلك ؛ فهو نفسه الذِّكْر بعينه ، ومصدر التذكير والعظة للعالمين كلهم ، فلا ذِكْر ولا عظة في كتابٍ كالذكر في هذا الكتاب المبارك ، وفي ذلك حثٌّ للناس على تدبره والانتفاع به ، ولا أدل على ذلك من المصدر ؛ لأنه مطلق حدث في أي زمن كان ، إذ إن غيره إما فعل دال على الحدث والزمن أو وصف مشتق دال على الحدث والذات ، وكلاهما لا يتناسب مع وصف القرآن الكريم بهذا الوصف ؛ لأن الزمن يحدد التذكير بالماضي أو الحال أو الاستقبال ، وإرشاده وتذكيره وعظته عامة في كل الأزمان والأوقات ، وكذلك الوصف المشتق ؛ لأن فيه معنى الحال أو الاستقبال ، كما أن دلالته على الذات لا تتناسب مع القرآن

الكريم إذ هو كلام الله تعالى .

ونكَّر كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ إرادةً للعموم والشمول ، فالقرآن شاملٌ كل ما يذكّره من نفعٍ وفلاح وهداية.

والمتأمِّل في الآيات السَّابقة التي قصرت القرآن الكريم على صفة (التَّذكير) يلحظ التَّشابه اللفظيَّ بين آيتي سورة يوسف آية (١٠٤) والتَّكوير آية (٢٧) مع آية سورة الأنعام آية (٩٠) ، فبين هذه الجمل القصريَّة تشابهٌ كبيرٌ يصل إلى حدِّ التَّطابق ، مع وجود اختلافٍ يسيرٍ يتمثَّل في تذكير المقصور عليه ﴿ذِكْرٌ﴾ في سورتي يوسف والتَّكوير ، وتأنيث المقصور عليه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في سورة الأنعام مع تذكير المبتدأ فيهما ؛ وذلك مراعاة لتناسب السياق الأسلوبيّ للآيات السابقة ، فاللفظُ في سورة الأنعام جاء مؤنثاً ؛ لأنّه تقدَّم الآية لفظ (الذِّكرى) مؤنثاً مرّتين في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾، فكان تأنيث المقصور عليه أليق وأنسب هنا [1]؛ حرصاً على تلاؤم نسق التعبير وتناسق عناصر الآيات بعضها مع بعض ، أمَّا ابن الزبير الغرناطي فيرى أنَّ «آية الأنعام تقدّمها قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، فنُوسب بين قوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ وبين ما تقدَّم ، فكأن التقدير: إنْ هو «أي الأمر أو المراد المقصود أو ما ذكر من الكتاب والحُكم والنّبوة» إلا ذكرى ، فناسبه (ذكرى) هنا لما تقدّم بيانه ، ولم يتقدّم هنا ما يستدعي لفظ التّذكير ويُناسبه فجاء كلٌّ على ما يجب » [2] .

بخلاف تذكير اللفظ في سورتي يوسف والتَّكوير فقد جاء على الأصل وهو التّذكير ،

(١) انظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن: ١١٠، وكشف المعاني في المتشابه المثاني : ١٩٦ ، وفتح الرحمن (شرح ما يلتبس من القرآن) : ٩٢ .

(٢) ملاك التأويل : ١/ ٤٦٠.

ولم يتقدَّمه ما يستوجب التأنيث ، بل إنّ المتمعن في البناء الأسلوبيّ وسياق النّصّ القرآني لسورة التّكوير يجد أنَّه لا يمكن ورود المقصور عليه ﴿ذِكْرٌ﴾ على خلاف صيغة المذكَّر لمناسبته مواضع التّذكير فيها ؛ ولو ورد بصيغة التأنيث لحصلت نفرةٌ في الأسلوب وتباعدٌ في تلاؤم عناصر آيات هذا المقطع من السُّورة ، وهو ما جلاه ابن الزبير الغرناطي بقوله : «إنّ آية التّكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ إلى ما وقع القسم به ثم ورد ضمير المقسم عليه في قوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾ أي إن القرآن لقول رسول كريم ، والمراد به : جبريل عليه السلام ، ثم أتبع بوصفه إلى قوله : ﴿ثَمَّ أَمِينٖ﴾ ، ثم قيل : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾ والإشارة إلى محمدٍﷺ ، فنزَّهه تعالى عن قول أعدائه ونسبتهم إيّاه إلى الجنون ، ثم وصفه تعالى بأنه على الغيب الموحى به إليه والمأمون على تبليغه غير متَّهم ولا بخيل على القراءتين ، فقال : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ ، ثم أعقب بقوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي : وما القرآن ﴿بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب ، ثم اتبع بقطع تعلّقهم فقيل : ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنّ كلّ ما رمتم من رميه عليه الصّلاة والسّلام به من السّحر والجنون والتَّقوّل لا يقوم شيء من ذلك على ساق ولا يتوهّم ذلك ذو عقلٍ سليمٍ ، ثم قال : ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، والضمير للقرآن ، ولا يمكن وروده على خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم» (١) .

ثم جاءت خاتمة السّورة بإثبات هداية القرآن الكريم والانتفاع به لمن أراد منهم السَّبيل القويم والطّريق المستقيم ، وتقرير أنَّ ما تشاءونه بإرادتكم ، إنّما هو بإرادة ربكم ورب آبائكم الأوَّلين ، ومدبِّر أموركم أجمعين فقال تعالى : ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وذُكر مفعول المشيئة هنا ﴿أَن يَسۡتَقِيمَ﴾لعظمته ، يقول السيوطي: « ذكر أهل البيان :

(١) ملاك التأويل : ١/ ٤٥٩ .

أن مفعول المشيئة والإرادة لا يذكر إلا إذا كان غريبا أو عظيما ، نحو ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ ... »[1].

ولما كان القرآن الكريم إنّما يتّعظ به من استقام على الحقّ أبدل الذين شاؤوا الاستقامة في قوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ من **(العالمين)** قبله ؛ لأنَّهم على الحقيقة هم المنتفعون بالذّكر المشتمل عليه القرآن الكريم ، وهم موضع الاختصاص بالموعظة والذّكرى ، وكأنه لم يُوعظ به سواهم وإن كان الوعظ بالقرآن للجميع أن يستقيم على الحقِّ والإيمان .

وهذه الجملة الشرطية : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ قد يُفهم منها أن اتخاذ الاستقامة والهداية متروكٌ لمشيئة المخلوق ، فإن أرادها سار فيها وفق مشيئته ، فجاء قوله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ منعاً لهذا التّوهم والظّن[2]، وتجليةً للمعنى المراد بأبلغ صورة ، فهي إطنابٌ بالاحتراس بإثبات أن مشيئة العباد غير كافية في اتباع سبيل الاستقامة والرشاد ، بل هي خاضعة ومرتبطة بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ولطفه وكرمه ، فلا تقدرون على تحصيلها في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيل ذلك ، تبعا لعلمه وحكمته سبحانه ، يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله ، ولا معقب لحكمه ، يقول ابن قيِّم الجوزيَّة : «فأثبت لهم مشيئة فلعلَّ متوهِّماً يتوهَّم استقلاله بها ، وأنَّه إن شاء أتى بها وإن شاء لم يأت ، **فأزال** سبحانه ذلك بقوله : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾»[3].

وجملة الاحتراس جاءت قصريَّة طريقها النفي والاستثناء ، بقصر مشيئة الخلق

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ٨٢٠ .

(٢) هذا الظنُّ قد وقع فإن أبا جهل لما نزلت آية ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾قال: الأمرُ إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ . انظر تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٨٢ ، وأسباب النزول : ٤٧٣ للواحدي .

(٣) الصواعق المرسلة : ١/ ٣٩٣-٣٩٤ .

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ على الارتباط والخضوع لمشيئة الله تعالى ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قصر موصوفٍ على صفةٍ ، والغرضُ منه دفع توهّم انفراد مشيئتهم بتحصيل المراد من سلوك الطريق الموصل إلى الله سبحانه وتعالى .

وفي حذف مفعول المشيئة إيجازٌ بالحذف تقديره : (وما تشاءون شيئاً) ، وهذا الحذف لإرادة التعميم وإثبات شموليّة مشيئة الله وعموميّتها ، فما يشاء العبد شيئاً أيّ شيء صغُر أو كبُر إلا هو كائنٌ بمشيئة الله تعالى .

وفي إتباع اسمه عزّ وجل﴿ٱللَّهُ﴾ بوصف الرّبوبيَّة ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّه ربّ لجميع الخلق ومنهم المخاطبون الذين يُنكرون نبوَّة نبيِّه ، ويجحدون إنزاله لهذه القرآن العظيم ، وهذا الوصف يجري مجرى الدّليل على تنزيهه سبحانه عن خديعتهم وإضلالهم والتّدليس عليهم ، وحثّاً لهم على عبادته وطاعته فهو ربهم ورب آبائهم الأولين ورب العالمين كلهم ، وأضاف اسمه الـ﴿رَبُّ﴾ لـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تشريفاً لهم .

وقد تميَّزت سورة التكوير في جميع آياتها بخصيصة بلاغية عظيمة هي إيجاز القِصَر ، فكلماتها القليلة في غاية الإيجاز والاختصار تدلّ على معانٍ كثيرةٍ لا يمكن استقصاؤها أو الإحاطة بها ، ومن تأمّل في تراثنا الإسلاميّ العظيم من خلال كتب التَّفسير يلحظ تنوّع المعاني وكثرة التّأملات التي استنبطها علماؤنا من آي هذه السّورة ما يشير إلى عظيم بلاغتها وسموّ إعجازها وغزارة معانيها ، والله الموفّق والهادي إلى سواء السّبيل .

الخاتمة

بعد هذه الجولة العطرة في ظلال سورة التكوير ومعايشة لآياتها أقف لأرصد بعض الحقائق التالية :

- الحديث عن أهوال القيامة وما يعجّ به يومها من أهوال وكربات وأحداثٍ كبرى يعتبر من أبرز وأطول الموضوعات في القرآن الكريم ، فقد تعدّدت السور التي تحدّثت عنه ، بطرائق متعددة ومشاهد متنوعة ، في بناء محكم وصياغة دقيقة ، تقوم على القِصَر وسرعة الحركة والإيجاز البديع بطيّ التفصيلات والتفريعات التي لا يتعلق بها غرض ، اعتمادا على فهمها من السياق ، وتركيزاً على جانب العبرة والعظة منها .
- القرآن الكريم وإن كان جاريا على سنن العرب في خطابها وبيانها ، إلا أن أحد وجوه إعجازه البياني يرجع إلى عرض المعنى الواحد في معارض متعددة لا عهد للبشر بها ، ومن ذلك مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء ، وما فيها من أحداث مروعة للنفوس ، مفزعة للقلوب ، مقلقة للمشاعر ، فقد ذُكرت في سور كثيرة منها : سورة التكوير والانشقاق والانفطار ، وتجاورها يشير إلى التقارب في مقاصدها ، خصوصا مع تشابهها في مطالعها الواردة على أسلوب الشرط .
- أوضح البحث أن كثيراً من مشاهد يوم القيامة الغيبية المستقبلية يأتي التعبير عنها بالماضي ؛ للإشعار بتحقّق وقوعها ، وكأن تلك الأهوال قد فُرغ منها ، فهي كائنة لا محالة .
- أكّد البحث على أهمية التوازن في القول بإثبات المجاز خصوصا في الغيبيات والسمعيات كأحداث يوم القيامة ؛ إذ الأصل فيها إجراؤها على حقيقتها وظاهرها لعدم وجود الدليل والقرينة عند تأويلها عن ظاهرها .
- كشفت الدراسة عن العلاقة الوثيقة بين طرفي القسم في هذه السورة (المقسم به والمقسم عليه) ، وما يكون بين عناصرهما من ارتباط واتصال من نواح كثيرة .

والله الموفِّق والهادي إلى سواء السَّبيل.

فهرس المصادر والمراجع

- **إتحاف فضلاء البشر** : للبنَّا الدمياطي ، تحقيق : د . شعبان محمد إسماعيل ، ط ١ / ١٤٠٧هـ ، د.ن .بيروت .
- **الإتقان في علوم القرآن** : لجلال الدين السيوطي ، تقديم وتعليق : د. مصطفى البغا ، ط٣ / ١٤١٦هـ دار ابن كثير ، دمشق.
- **الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم :دراسة ونقد** : د. إبراهيم عيسى ، دار السلام بالقاهرة ،د.ط.
- **أسماء سور القرآن وفضائلها** : د. منيرة الدوسري ، ط ٢ / ١٤٢٩ ، دار ابن الجوزي ، الدمام .
- **الأضداد** : محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط / ١٤١١هـ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .
- **الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن : د. محمد الأمين الخضري ، مطبعة الحسين الإسلامية خلف الجامع الأزهر بالقاهرة ،د.ط.
- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق** : د. عائشة بنت عبد الرحمن ، دار المعارف بالقاهرة ، د.ط.
- **الإكسير في علم التفسير** : لسليمان بن عبد القويّ الطّوفي ، حقّقه أ .د .عبد القادر حسين ، ط٢ / مكتبة الآداب بالقاهرة .
- **أهداف كلّ سورةٍ ومقاصدها في القرآن الكريم** : د. عبد الله شحاته ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، ١٩٧٦م .
- **الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال** : ناصر الدين الإسكندري ، ط١ / ١٤١٧هـ ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت .
- **بديع القرآن** : لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق : د.حفني شرف ، ط ٢ / دار نهضة مصر .
- **البرهان في تناسب سور القرآن** : لابن الزبير الغرناطي ، ط٢ / ١٤٢٨هـ ، دار ابن الجوزي بالدمام .
- **البرهان في توجيه متشابه القرآن** : لمحمود الكرماني ، تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا ، طبع دار الفضيلة بالقاهرة ، د.ط.
- **البرهان في علوم القرآن** : بدر الدين الزركشي ، تحقيق : د. يوسف المرعشلي ، وجمال الذهبي ، وإبراهيم الكردي ، ط١/ ١٤١٠هـ ، دار المعرفة ، بيروت .
- **التبيان في أيمان القرآن** : لابن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد الله البطاطي ، ط١ / ١٤٢٩هـ ، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة .
- **تفسير أبي السعود المسمَّى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)** : لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، د.ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

- **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم** : د. عبد العظيم المطعني ، ط١ / ١٤٢٠هـ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .
- **التفسير البياني للقرآن الكريم** : د. عائشة بنت عبد الرحمن ، ط٧ ، دار المعارف ، القاهرة .
- **تفسير التحرير والتنوير** : الطاهر ابن عاشور ، د.ط. دار ابن سحنون للنشر والتوزيع ، تونس .
- **تفسير جزء عم** : للشيخ محمد عبده ، ط ٣ / ١٣٤١هـ ، مطبعة مصر .
- **تلخيص البيان في مجازات القرآن** : الشريف الرضي ، تحقيق : محمد حسن ، د.ن. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
- **تنزيه القرآن عن المطاعن** : القاضي عبد الجبار ، د.ط . دار النهضة الحديثة ، بيروت .
- **الجامع لأحكام القرآن** : محمد القرطبي ، تحقيق : د. محمد التركي وآخرون ، ط ١ / ١٤٢٧هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- **حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي)** : لشهاب الدين الخفاجي ، حققه : عبد الرزاق المهدي ، ط١ / ١٤١٧هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغيّة** : د. عبد العظيم المطعني ، ط١/ ١٤١٣هـ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .
- **الدُّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون** : للسمين الحلبي ، تحقيق : د . أحمد الخراط ، ط ١ / ١٤١٥هـ ، دار القلم بيروت .
- **دلائل الإعجاز** : عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلّق عليه : محمود شاكر ، ط٣/ ١٤١٣هـ مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- **دلالات التراكيب (دراسة بلاغية)** : د . محمد أبو موسى ، ط٢/ ١٤٠٨هـ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : محمود الألوسي ، د.ن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان .
- **سرُّ الفصاحة** : ابن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي ، ١٣٨٩هـ ، مكتبة ومطبعة محمد صبيح ، القاهرة .
- **الصفوة في معاني شعر المتنبي وشرحه** : لأبي اليمن الكندي ، دراسة وتحقيق : د. عبد الله الفلاح ، ط١ / ١٤٣٠هـ ، نادي الرياض الأدبي .
- **فتح الرحمن (شرح ما يلتبس من القرآن)** : لزكريا الأنصاري ، قرأه وعلق عليه : د. يحيى مراد ، ط١/ ١٤٢٤هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** : محمد الشوكاني ، ط٢ / ١٣٨٣هـ ، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر .
- **في رحاب القرآن الكريم** : د. محمد سالم محيسن ، ١٤٠٩هـ ، دار الجيل، بيروت.

- **قبسٌ من البيان القرآني** : د. محمد حسن شرشر، ط١/ ١٤٠٣هـ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .
- **كتاب الصِّناعتين (الكتابة والشعر)** : لأبي هلال العسكريّ ، تحقيق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ، ط٢ ، دار الفكر العربيّ .
- **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** : لأبي القاسم الزمخشري ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، ط١ / ١٤١٧هـ ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت .
- **كشف المعاني في المتشابه المثاني** : لبدر الدين ابن جماعة ، تحقيق : مرزوق علي إبراهيم ط١/ ١٤٢٠هـ ، دار الشريف بالرياض .
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** : لابن عطية الأندلسي ، د.ط.طبع دار ابن حزم .
- **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع** : لجلال الدين السيوطي ، قرأه وتممه : د. عبد المحسن العسكر ، ط١ / ١٤٢٦هـ ، مكتبة المنهاج بالرياض .
- **مراقي المجد لآيات السعد** : لأبي العباس المنجور ، تحقيق : د. مبارك الحبيشي ، ط ١ / ١٤٣٠هـ ، عمادة البحث العلميّ بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة .
- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: لأبي الحسن البقاعي ، حققه: د. عبد السميع حسنين ، د.ط ، مكتبة المعارف بالرياض .
- **المصباح** : لابن الناظم ، د.ط، مكتبة الآداب بالقاهرة .
- **معاني القرآن** : صنعة : الأخفش الأوسط ، حققه : د . فائز فارس ، ط ٢ / ١٤٠١هـ .
- **مفتاح العلوم** : لأبي يعقوب السكاكي ، ضبطه وعلق عليه : نعيم زرزور ، ط٢/ ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلمية بيروت .
- **المفردات في غريب القرآن** : لأبي القاسم الأصفهاني ، د.ط، دار المعرفة ، بيروت .
- **مُقدِّمة تفسير ابن النَّقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن** : لأبي عبد الله النقيب ، كشف عنها وعلَّق عليها : د . زكريا سعيد علي ، ط ١ / ١٤١٥هـ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .
- **المكي والمدني في القرآن الكريم** : د. محمد الشائع ، ط١/ ١٤١٨هـ ، د.ن .
- **ملاك التأويل** : لابن الزبير الغرناطي ، ت : سعيد الفلاح ، ط ١ / ١٤٠٣هـ ، دار الغرب الإسلامي .
- **من بدائع النظم القرآني** : د. السيد عبد الفتاح حجاب ، د.ط ، مطبعة الجندي ، بنها الجديدة .
- **النشر في القراءات العشر** : لابن الجزري ، د.ط ،دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **نظم الدّرر في تناسب الآيات السّور** : لأبي الحسن البقاعي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، د.ط ، دار الكتب العلمية بيروت .
- **النّكت في إعجاز القرآن** : لأبي الحسن الرّمّاني ، طُبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله و د . محمد زغلول سلام ، ط ٤ / دار المعارف بالقاهرة .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
الملخص	٢٤١
المقدمة.....	٢٤٢
التمهيد	٢٤٦
أسماء السّورة وتاريخ نزولها وترتيبها في النّزول وعدد آياتها.....	٢٤٦
فضلها.....	٢٤٦
أغراض السّورة ومقاصدها الكبرى.....	٢٤٩
تناسب خواتيم سورة عبس مع فواتح سورة التكوير.....	٢٥٠
تناسب مطلع السّورة مع خاتمتها.....	٢٥١
المبحث الأوَّل : حقيقة يوم القيامة وما يصاحبه من أهوال	٢٥٢
المبحث الثاني : حقيقة الوحي ، والتَّنويه بصفات الرسول الكريم والرسول المُرْسَل إليه.....	٢٨٠
الخاتمة	٣١٤
فهرس المصادر والمراجع	٣١٥
فهرس الموضوعات	٣١٨